

بسم الله الرحمن الرحيم

فكر التجديد الحضاري

(١) مفهوم التجديد الحضاري والوعي على الأزمة الفكرية :-

إن مفهوم التجديد الحضاري والدعوة إلى ممارسته تعبير عن وعي بحقيقة علة الأمة وأزمته الفكرية ، صحيح إن عملية الغزو الفكري والتغريب قد ساعدت على تفاقم هذه العلة وتعدد مظاهرها ، وشل وتعويق عناصر مقاومتها ومواجهتها ولكننا لا نريد أن نشتغل بالحديث عن الخارج وأثره لننتقل من التبعية ونريح أنفسنا بلقائنا على الآخرين ..

إن مكامن علتنا وجذور أزمته الفكرية كامنة في جذور تاريخنا ، وفي مسيرتنا الفكرية ، وفي منهجنا في التفكير ، وفي أساليب فهمنا لديننا وفهمنا للكون والحياة ومهتنا في الحياة والأمانة التي كلفنا بها .

أما مصادر هدايتنا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فهي وحي إلهي خالد تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فكتاب الله لا يحتاج إلى تجديد حيث لا تنقض عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد . أما فكر المسلمين وفهمهم ومناهجهم في الفهم والتفكير فهي التي تحتاج إلى التجديد المستمر ، والمراجعة الدائمة .

إن العقل المسلم الذي يضطلع بالتفكير في الإسلام قد يطول عليه الأمد ، أو ينحرف اعتقاده ، أو تدخل عليه معارف أو تجارب تغير طرائق تفكيره ، فإذا تغيرت عقيدته واختلفت معارفه ، وتغير تفكيره ، وفسدت مناهج تفكيره واعتلت رؤيته ، وإذا انحرفت رؤاه انحرف فكره ، أما إذا اتسعت معارفه وطابت مناهجه وصلحت مفاهيمه واستقامت رؤيته على الطريقة فإنه في استقامة وصلاح (١) .

(١) راجع : د. حسن الترابي ، تجديد الفكر الاسلامي ، جدة : الدار السعودية للنشر ، ص ٢١ ، ١٤٠٧هـ

١٩٨٧م /

وقد كتب في كتابه هذا بعض الفصول القيمة استفدنا ببعض أفكاره :-

- الفكر الاسلامي هل يتجدد ؟

ذلك إن العقل الانساني يتفاعل وينفعل بالظروف التي تحيط به وبالاحتاجات التي يحسها الناس وبالوسائل التي تتيحها له ظروف الحياة ، والفكر الاسلامي نتيجة ذلك النظر والتفاعل بين العقل المتعامل مع هذه العلوم ، المنفعل بهذه الظروف مع الهدى الأزلي الخالد الذي نزل به الوحي وبلغه نبيه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وعلى الفكر الاسلامي نشأت من هذه الوجوه الثلاثة : -

فأولاً :

كان ينبغي له أن يتفاعل - أي الفكر الاسلامي - وأن يتواصل بأصوله الخالدة ، إلا أنه بتقادم العهد ، وطول الأمد انقطع عن هذه الأصول شيئاً ما واتخذها مهجوراً .

ثانياً :

كان عليه مع دين يحث على استخدام العقل فجعله مناط تكريم الانسان ، سبباً لحمل الأمانة ، ودين يأمره بالنظر والتفكير والتدبر والاعتبار والتبصر بأن يتعامل مع العلوم والمعارف العقلية بل عليه أن ينشئها على أساس من مبادئ الوحي الذي يؤمن به وتوخياً لمقاصد الشرع الذي يحتكم إليه .

وثالثاً :

هو فكر ينبغي له أن يتعامل مع الواقع ويعتبره ، يعرف معطياته ، كما يعرف إمكاناته فيستثمرها ، ومعوقاته التي تحول بين حاكمية الشرع فيه فيحاول إيجاد الحلول المناسبة للتغلب عليها ، والواقع يؤكد أن فكر المسلمين قد انقطع - أو يكاد - عن حياة الناس وصار فكراً مجرداً .

(٢) الفكر الاسلامي والتجديد الحضاري : فكر التجديد الحضاري : -

فينبغي للفكر الاسلامي أن يكون أساس تجديد حضاري ، يمارس حقيقة العملية الاجتهادية باعتبارها عملية حضارية شاملة ، ويواجه كل آفات الجمود والتصلب ، كما يرد كل آفات الليونة والتميع ، بل إن جزءاً من عملية التجديد الحضاري هو أن تشيع الوعي بمصطلح الفكر الاسلامي ودوره في بناء الأمة وبلوغ مقصد وحدتها وسموها الحضاري ، فإن البعض لا يكادون يميزون بينه - أي الفكر الاسلامي - والفقہ الاسلامي . ويجعلون من الفقيه الاسلامي هو الملتزم للأصول ، أما المفكر الاسلامي فإنه الرجل المنطلق على هواه والمتفلت من قواعد الشرع ومناهجه .. وإذ ننتقد هذا التصور فإنه لا بد أن ننتقد هؤلاء الذين لا يهمهم أن يكونوا قليلي حظ من قرآن وسنة ويجلو لهم أن يفكروا بالإسلام بغير مرجع أو هدى من كتاب منير وبغير رجوع إلى سنة الرسول ، مهما خلت ؟ عليه وسائل الإعلام التي تصنع المشاهير من صفات مثل المفكر الاسلامي الكبير وبضاعته من الاسلام قليلة ، وحيلته في التعامل معه قليلة .

فالتجديد ينبغي أن يكون عودة إلى الأصول ..

كما ينبغي لهذا الفكر الذي يسعى للتجديد الحضاري وممارسة الاجتهاد كمفهوم حضاري شامل ، ينبغي له أن يتجاوز الفروعية ، إن صح هذا التعبير ، والأطروحات الجزئية والأحادية ، فلقد اعتاد مفكرو الإسلام أن يوغلوا في التفصيل وتفاصيل التفاصيل ، ما بين شروح وحواشي ، وشروح على شروح ، والاسلام وفق منهجه الواضح البين يعلم المسلم كيف يتعامل معه ويفكر فيه يؤكد عليه أن ينظر إليه نظرة الأصول لا الفروع والشمول لا التجزيئي ، والكلية لا الأحادية .

ذلك أن هذه التصورات الفروعية والأحادية والجزئية جعلت المفكر المسلم ينظر للإسلام بعيداً عن مقاصده ومراجعته ، وجوهر معانيه ، وقواعده ومبادئه العامة ، من حيث هو إيمان حي يتحرك وإنما هو يعلم تفاصيله المنشورة فأجزاء هنا أو هناك ، لا ينظم بينها في بنيان ، ولا يركبها في جسد ، فإن هذا النظم هو مقتضى الاستجابة لما فيه حياة المسلمين وإسلامهم : (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

وعلى هذا الفكر ، فكر التجديد الحضاري أن يعي الأولويات وسلم تصاعدها فقد اختلت الأولويات اختلالاً كاملاً وصرنا نتعامل مع مظاهر العلة لا أسبابها وعواملها ، وذلك من طبيعة نظرة الفروع والأجزاء التي لا ترد فرعاً لأصل ، ولا ترعى جزءاً من كل ، خاصة أن للإسلام في ذلك ترتيب واضح وبين يرتبط بمقاصد الشرع ، فينبغي لهذا الفكر ، فكر التجديد وعمارة الحضارة أن يأخذ هذا الدين من كلياته ومبادئه ومن فروعه كذلك ، حتى تنضبط وجهته العامة الكلية ، لأنه إذا نظر إلى التفاصيل ، والأجزاء ، دون أن ينظم بينها في قاعدة كلية ربما يضل ويفغل عن الفهم الصحيح .

إن على فكر التجديد الحضاري أن يتجاوز الشكلية باعتبارها غاية ومقصد ، فالاهتمام اللفظي^{البحري} يجب ألا يضيع المقاصد ، بكل كان في بداية أمره وسيلة لفهم المقصد وبيانه وتأصيله ، ونعى ؟ الإمام الغزالي على سدة الشكلية هؤلاء قائلوا : إن الفقهاء علماء دنيا لأنهم نسوا النيات ونسوا المقاصد ، ونسوا أن الأمر أمر دين يتجه إلى الله وإلى الدار الآخرة ، واهتموا بالألفاظ والأجزاء والتفاصيل والفروع والأحكام ، فسامهم علماء دنيا ، ولذلك قال : إنني أريد أن أحيي وأن أبعث روحاً في علوم الدين لأنها أصبحت أشكالا وطقوساً .

وأخذ الغزالي بدلا من أن يبحث كيف ترفع يدك وكيف تقيم أصبعك عن قراءة التشهد و... وهذه كلها أحكام لا بد منها ومن معرفتها وأدائها ، وأخذ يتحدث عن أسرار الصلاة ، وعن حكمها وعن معنى الركوع لله والسجود له ، أخذ يحيي ويبعث روحاً في هذا الدين ويرده إلى أصوله العقديّة وكان الغزالي في ذلك معتدلاً ، إلا أن غلاة الصوفية - الباطنيين - الذين يتجاوزون الأعمال والصلوات والألفاظ ويظنون أن الانسان يصل إلى مقصد الدين بمشاعر يستشعرها وبمعالم يصطحبها ، وأصبحوا لا يكثرثون كثيراً بالأعمال الدينية . وظل هؤلاء وهؤلاء لا يتصورون الجمع بين الهيئة والشكل من ناحية وبين الروح والقيمة والمقصد من ناحية أخرى كما أراد الغزالي في إحيائه لعلوم الدين .

وكذلك فإن فكر العمارة الحضارية والتجديد الحضاري عليه أن يتجاوز القسمة بين العلوم من علوم دين ودنيا ، إلى توحيد بينها كعلوم للأمة وبناء حضارتها ، تستلهم قواعد الدين وأصوله ومقاصده وتجعل من العقيدة أنماط وسلوك في حياة الانسان المسلم ، فوصل هذه العلوم بالدين من ناحية وبالواقع من ناحية أخرى إنما يشكل الفهم الصحيح لصياغة تلك العلوم ، علوم الأمة والحضارة الصياغة السليمة والواعية . ومن هذه الكلمات الأخيرة تبدو سمة

أخرى ينبغي لفكر التجديد الحضاري أن يتسم بها ، فإن مقصد هذا الفكر في تحقيق مسيرة الاستخلاف والعمارة يفرض ذلك عليه التعامل مع واقع ، بل هو في الحقيقة « واقع أزمة » ، يتطلب جهوداً إضافية ونوعية قادرة على أن تقدم التحليل لهذا الواقع والإجابة على كثير من مشكلاته التي يعاني منها وبالإجمال فقه هذا الواقع والوعي بعناصره ومعطياته وآلياته ، وآليات عملية التغيير له ، ولنا في ذلك أن نستلهم المنهج القرآني في النزول من لدن ؟ الله سبحانه وتعالى ، فكيف ؟ يأت القرآن أبواباً مبوبة ولا ألواحاً تنزل في وقت واحد وإنما نزل منجماً على الأحداث ، ضمن عملية تربوية تدرجية ترسخ قيم الإسلام في النفوس المهتدية حتى تحولها إلى سلوك حياتي معاش . تقع الواقعة ، ويتخذ الناس فيها ومنها مواقف شتى ويتهيأون إلى حكم من الله يفصل بينهم فيأتي من الله الحكم بالقول الفصل ، وذات المنهج كان في سنة النبي صلوات الله وسلامه عليه ، كان قليلاً ما يقف في الناس خطيباً يعرض عليهم - عرضاً نظرياً - أو قائمة بتعاليم الإسلام وإنما كان يعلمهم في كل موقع .. في كل حادثة .. في كل واقعة .. ويوجه دائماً إلى العلم النافع المرتبط بالعمل الصالح ومشيراً أنه لافائدة من علم لم يكن وراءه عمل .. وكان المنهج الفقهي في بواكيره يرفض الأغاليظ والمسائل التي تقع ، ويأبى الواحد منهم أن يفتي حتى تقع بالفعل وتبتدئ معالمها الواقعية وتتضح وجوه المصلحة فيها ، كما تتضح وجوه مخالفة الشريعة وموافقتها ، والرجحان لهذا الجانب أو ذلك .

وفي العصور المتأخرة أنتج هذا الفقه فكراً لا يمت لواقع بصلة يجيب على الوقائع المحلثة إجابات تاريخية ، فصار الفكر الإسلامي فكراً تجريدياً خرج من التاريخ والواقع .. واضطر الحكام وفي أحيان كثيرة استسلموا ، عندما طلبوا من الفقهاء الفتوى الشرعية ، فلم يجدوا حلاً شافياً أن يأخذوا مما هو جاهز كيفما اتفق ، عرفياً كان أو شخصياً ، وبدت الثغرات في بادئ الأمر يسيرة إلا أنها زادت من انفجارها واتسع مداها إلى حد طغى اليوم على الدين كله أو يكاد .

ولا نقصد بذلك أن يكون التفكير الإسلامي واقعياً أن يرضخ لضغوط الأمر الواقع ويسير كيفما يسيره ذلك ، فإن هذا خارج عن حدود فكر التجديد الحضاري المنشود بل هو إبقاء للواقع الحضاري المأزوم .

كما لا يقصد بهذا التفكير استحضر التاريخ إلى الواقع بشكل آلي وبأشكاله وقضاياه ، ولكن الوعي بالتاريخ كأساس للوعي بالواقع وما آل إليه .

نحن في حاجة إلى تفكير حضاري شامل يقوم على فقه جديد لهذا الواقع المتغير والمختلف ، وإن تحكيم الإسلام في الواقع لا يكون إلا بفقه الشروط العملية لهذا الواقع وإمكانات تغييره .

التجديد الحضاري في حقيقته ليس إلا تجديداً لعلاقة المسلم بشرعه على قواعد راسخة لا استشارات عاطفية ، ومن الإيمان القوي يولد طاقة حضارية تحقق أحكام الدين في الواقع المقاس من خلال عمليات اجتهادية متتابعة ومستمرة ومراجعة شاملة للفكر والحركة حتى تترسم الخطى الواعية والراسخة والمتبصرة على طريق شهود الأمة الحضاري .

فكر التجديد الحضاري هو الفقه الذي يعالج قضايا الأمة والذي يمكن تسميته فقه العمارة الحضارية إن جاز هذا التعبير فإنه يتجاوز دون أن يهمل فقه القضايا الفردية إلى قضايا البناء الحضاري للأمة والتي تتسم بالتشابك والتداخل والتفاعل بحيث تمارس العملية الاجتهاد بمفهومها الحضاري الشامل وكأداة أساسية لعملية التجديد والإحياء الحضاري .

فكر التجديد الحضاري قاعدة أصيلة للتدين والهداية واستمرارهما الذي يمارس العبادة باعتبارها حركة حضارة تربط ربطاً أساسياً بين عمارة المسجد وعمارة الأرض ، وليس عجيباً أن يستخدم لفظ العمارة في المجالين باعتبارهما قاعدة لمفهوم العبادة الشامل والذي يربط ذلك بخلق الإنسان : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

هذا هو فكر التجديد الحضاري الذي يعي حقيقة الأمة وهويتها « الوعي بالذات » والوعي بالتحدي الحضاري وضخامة « التحدي من داخل ومن خارج » ، والوعي بالموقف بما يمكن من وعي كامل بالواقع لا تجاهله .

فكر التجديد الحضاري يربط بين حلقات الوعي المختلفة وينظم بينها ويضع كلا منها في مكانها المناسب ، ومن الوعي ألا يسطح الأمور ، ولا يعالجها بصورة عاطفية حماسية ، أو يتكل ولا يمارس الفعل والفاعلية الحضارية ، ويعي أن الشهود ليس منحة ، وإنما هدف حضاري يتوصل إليه بالعقل الحضاري الواعي فينال وعد التمكين وتوفير شروطه .

٣) مستويات التناول والتحليل في الدراسات الحضارية :

تحليل وتصنيف ونقد :

إن حصر الدراسات السابقة التي تتعلق بموضوع الحضارة بصفة عامة ، وموضوع الشهود الحضاري بصفة خاصة ، أمر يصعب القيام به في مثل هذا البحث الوجيز ، إلا أننا سنتعرض لذكر بعض الملاحظات المشتركة التي يمكن تبنيها في دراسة هذا الموضوع مع تنبيه إلى الاتجاهات الأساسية لتلك الدراسات وذكر نماذج منها ما أمكن لتوضيح ذلك .

أولاً: مستوى تناول الإسلاميين :

(١) إن الموقف العام الذي يتخذه كثير من الكتاب الإسلاميين الذين يتعرضون لموضوع الحضارة بالدراسة والبحث يتجه نحو الوصف المحدود والتحليل غير المستقرئ لسائر عناصر الموضوع وما يترتب على ذلك من الاستنتاج السريع والتبسيط والتساهل الذي يؤدي في نهاية الأمر إلى الحكم الذي تعوزه الدقة والتوازن من جانب فضلاً عن الدليل المقنع من جانب آخر . وكثير من تلك الدراسات تتجه نحو نقد الحضارة الغربية وإبراز معاييبها وتصويرها بأنها على شفا الانهيار ، كما تصور بعض الدراسات الصحوة الإسلامية المعاصرة كأنها البعث الجديد المستوفي لسائر عناصر البديل الحضاري وشروطه ، والمؤهل لشغل الموقع الذي ينتظر من يشغله ، ولا مؤهل له سواه . ولاشك أن هذا الأسلوب في التناول يقطع النظر والطريق للتوصل إلى نتائج ملاحظات صحيحة موضوعية ، وضرره أكبر من نفعه ، كما يؤدي - لامحالة - في النهاية إلى الوقوع في أخطاء منهجية متتالية في الفكر وفي الحركة الحضارية الإسلامية على حد سولو (١) .

(١) قارن في هذا المقام بعض القواعد المنهجية المقترحة للتناول الحضاري للرؤية الإسلامية : محمد فريد عبد الخالق : أساسيات في موضوع الإسلام والحضارة ودور الشباب ، ضمن : الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم ، الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، اللقاء الرابع ، الرياض ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١ م . ع ١ ، ص ١٦٤ وما بعدها .

ولعل أهم تلك الأخطاء الحيلولة دون الوصول إلى تشخيص أزمة الأمة

التشخيص السليم ومن ثم ضلالها الطريق في الوصول إلى الدواء المناسب للداء ، وهي حالة تحمل الأمة ؟ عن حالها وما هو عليه دون الالتفات إلى أخطاء الحركة فكرياً ومنهجياً ، بل ربما يؤدي بها إلى الغرور وإخراجها من حالة التوتر « الدافع إلى الحركة باتجاه التغيير الحضاري » إلى حالة من الاسترخاء والارتياح بل والاستئناس .

(٢) أما الخطأ المنهجي الآخر الذي قد يؤدي إليه بعض هذه الدراسات فيمكن في الرفض المطلق والإهمال الشامل لمعطيات الحضارة المعاصرة ، فإن التركيز على إظهار عيوب الحضارة الغربية والتأكيد على قرب انهيارها دون تحفظ يذكر ودون تناول تفصيلي لسائر القضايا الموضوعية والذاتية المتعلقة بهذه الحضارة ، وبالبديل المنتظر لها يؤدي إلى انعدام الوعي على طبائع الأفكار والثقافات والحضارات وموازين قيامها وزوالها والسنن الإلهية التي تتحكم في طريق التطور والتعبير ، وطريق الانحدار والسقوط ، وغاية الأمر ، إن كثيراً من التأليف في قضية الحضارة عالجت الموضوع بمنهج يتسم تارة بالدفاع ، وأخرى بالعاطفية المشحونة ، وتارة ثالثة بالتبسيط وأحياناً بالنزعة الافتخارية بالتراث الماضي .

تلك التوجهات في معالجة مثل هذه القضايا لا تصل بالباحث أو القارئ إلى نتائج سليمة سواء في مجال فهم الموضوع وتصوره ، أو في مجال فهم الواقع وتحليله . وبعض تلك الدراسات والمقالات لاتعدو أن تكون إشارة خطابية في فضل الحضارة الإسلامية وتفوقها في مجال القيم على الحضارة الغربية سواء في الواقع التاريخي أو في امتياز أسسها العقيدية والفكرية عن أسس الحضارة الغربية ، كل هذا يكرس عمليات الهروب إلى الماضي ، والانكفاء عليه والغفلة عن فقه واقع الأمة وعلاقة مشكلات هذا الواقع بجذور أزمته الفكرية والمعرفية التي أدت إلى شلل في طاقاتها ، وعجز في فاعليتها مع الاطر النظرية المرجعية الهاوية وتحويل هدايتها إلى واقع حضاري ، ولقد وُجه إلى هذا النوع من الدراسات نقد من الطرف الآخر باتهام الإسلام بالمثالية والخيالية إحياناً وبالسطحية والحرفية أحياناً أخرى مما ساعد على تكثيف الحواجز بينهم وبين جماهير الأمة وزيادة عوامل سوء الفهم وعدم الوضوح في رؤيتها للمشروع الحضاري الإسلامي .

فضلا على ذلك فإن هذه الدراسات لم تحاول دراسة وتقصي منظومية المفاهيم الحضارية الإسلامية والرباط بينها والناظم لها ، ولم تستقرئ سنن

الله تعالى في قيام الحضارات ونهوضها وتراجعها وانهارها ، بحيث تشكل تلك المنظومة بناءً مناهيجياً متكاملًا ورؤية عمرانية إسلامية شاملة يشد بعضها بعضاً ويحقق فهماً متكاملًا .

كما أن بعض هذه الدراسات قد انتقدت المفاهيم الشائعة للحضارة ، وهي المفاهيم المستمدة من المنظور الغربي للحضارة ، وهذا أمر طيب في ذاته خاصة ذلك المنظور الذي يجعل المادة مضمون الحضارة وأساسها ، كما يجعله المعيار الأول والأخير لتقويم الانجاز الحضاري - وقد حاولت بعض هذه الدراسات أن تقدم البديل الإسلامي للمفهوم وبعضها قد خطا خطوات قيمة في اتجاه تقديم المفهوم الإسلامي البديل ولكنها رغم ذلك لم تول البعد الفكري في بناء الحضارة ، وتحقيق العمران وإيجاد حالة الشهود الحضاري ما يستحقه من العناية .

والذين انكفأوا؟ على الجانب الفقهي وحاولوا أن ينطلقوا منه باتجاه صياغة نموذج الشهود الحضاري الإسلامي المعاصر أثاروا من التساؤلات حول صلاحية الحل الإسلامي أكثر مما قدموا من الحلول ، وأصابوا الرؤية الإسلامية للمشروع الحضاري الإسلامي كثيراً وفوتوا على أنفسهم وعلى الأمة وقتاً طويلاً وبددوا طاقة ضرورية في أمر قد كان لهم فيه أناة ، ولو أنهم قدموا منهجية الاجتهاد وأرسوا دعائم « الفقه الحضاري » القائم على دراسة سنن قيام الأمم كما هي منشورة في كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم وقدموا تلك السنن في منهج كامل ودعوا إلى الاجتهاد باعتباره عملية حضارية شاملة تتسع لكل متطلبات البناء الحضاري الإسلامي ، إذ يرسون بذلك قاعدة صلبة يبنى عليها وفي سياقها نموذج الشهود الحضاري الإسلامي ، وإمكانات تحقيقه وتفوقه على أي نموذج آخر .

(هـ) أن بعض تلك الدراسات توهمت - وما كان لها ذلك - إن مفهوم الشهود الحضاري مفهوم يمكن ملؤه بمفاهيم مقتبسة من هنا ومن هناك قد تتناقض فيما بينها أولاً تتسق مع منظومة الفكر الإسلامي ، ولم تدرك بعض تلك الدراسات أن مفهوم الشهود الحضاري شأنه شأن المفاهيم الإسلامية الأخرى يتصف بصفاتهما ويبنى على القواعد الفكرية الإسلامية التي تبنى بها ويتطلب أن يوضع بين مجموعة المفاهيم الإسلامية التي تؤكد معناه وتبين مضمونه وترسم حدوده حتى تتضح عناصره وتدرك أبعاده .

خلاصة القول بأن معظم طرق التناول لهذا الموضوع من جانب الكتاب

الاسلاميين كانت تحركها ضغوط الغياب الحضاري الطويل وبيئة التخلف والانسحاق ، وتراكمات العقلية المستقلة طيلة قرون التقليد ، وسيطرة المناخ الفكري المنحرف ، وهذه التراكمات جعلت الحس الاسلامي يستجيب في بحثه لهذه القضية الحضارية الخطيرة ومعظم الظواهر المتعلقة بها بانفعال شديد ، فهو إذ يؤكد أنه المرشح والبديل بشكل يقرب من الحتم نراه يعفي نفسه من كثير من المسئوليات التي تكمن في العمل على توفير الشروط الذاتية والموضوعية للبديل الحضاري ومن هنا جاء التناول في غالبه سطحياً بعيداً عن دراسة السنن وعاطفياً خطابياً يستند إلى تصور مفاده أنني مادمت أدين بدين أفضل ، ولي موارد بشرية ومادية هائلة ، وعندني براءة من كثير من الأمراض الخلقية الخطيرة التي أصابت الغرب رغم تقدمه وتخلفي فإن هذا يكفي أن يجعلني بالمرشح الحضاري القادم ، إلا أن هذا التصور قائم على ملاحظة البناء الحضاري وإمكاناته الكامنة والظاهرة ولكن لايربطها بالشكل الصحيح بالشروط الحضارية وفي مقدمتها معالجة الأزمة الفكرية ، وبدون توافر النسق العمراني الاسلامي بدون توافر الشروط لا تكون الامكانيات المادية مهما تعاظمت وتراكت ذات فاعلية أو تأثير .

(٦) ومع كل ما تقدم فلا بد أن نشير بتفاؤل وأمل إلى بعض تلك الدراسات التي تميزت بدرجة كبيرة عن الأصالة والمنهجية في التحليل وإن لم تعالج الموضوع في كلية وشمول . ولذلك فإننا نقترح ليكون تناول هذا الموضوع سليماً ومحققاً للأغراض الاسلامية في المستقبل أن تتولى الجامعات في بلادنا الاسلامية المختلفة تدريس مادة « الشهود الحضاري الاسلامي » وتطوير الموجود من هذه البرامج في بعض الجامعات حالياً تحت عنوان مادة « الحضارة الاسلامية أو الثقافة الاسلامية » أو « المجتمع الاسلامي المعاصر » أو « المجتمع العربي » أو أي تسمية أخرى يقدم في إطارها موضوع « الحضارة » والتطوير المقترح - هو تطوير يمكن أن يؤدي إلى « فقه الحضارة » وتكوين مفهوم « الشهود الحضاري الاسلامي » حقيقته ومفهومه وضرورته والسنن التي تحكمه ، والقواعد التي تقوم الحضارات عليها وتهبط عند اهتزازها وانهارها بحيث تكون هذه المادة هي مادة بناء الحس الحضاري الاسلامي ولعل في المقرر التالي ما يصلح أن يكون مقرراً ملائماً لتحقيق هذا الغرض . والله ولي التوفيق .

ثانياً: مستوى تناول اللادينييين (العلمانيين) : - (١)

إذا كنا قد أشرنا في مستوى تناول الاسلاميين للقضية الحضارية بأنه تميز - في معظمه بالسطحية والانفعال ، فإن تناول **الحدائثيين والعلمانيين** لا يقل عنه سطحية وانفعالا وتبعية لافعل التقليد من داخل ، ولكن بفعل التقليد إلى خارج .

وإن كان ليس من هدفنا أن نقيم الدراسات الحضارية سواء تعلقت بموضوعات النهضة والتقدم والحضارة للجانب اللاديني لأن هذا يتطلب جهداً مستقلاً ، ذلك أن هذا الاتجاه له مشروعه الكامل - في مظهره - في هذا المقام ، وهو فريق يعتبر من داخل الأمة ولكن من خارج الاتجاه الاسلامي .

وإن النقد الأساسي الذي يوجه إلى مستوى تناول العلماني أنه **يعتمد في تفكيره في قضية الحضارة على المفهوم الغربي** للحضارة ومن خلال المنظور الغربي للظواهر المتعلقة بهذه القضية ، وهو في تبنيه لهذا المنظور - دون أو في مراجعة منه - يمارس نفس عقلية التقليد وإذا كان مستوى تناول الاسلاميين يمارس التقليد مهملاً للواقع بالعودة إلى التاريخ ، فإن مستوى تناول اللادينييين يمارس التقليد والتبعية مهملاً للواقع بأسهلاك أفكار الغرب دون مراعاة لحقوقية النمط الحضاري للمجتمعات الاسلامية ، ودون النظر بعين الاعتبار لقضية الهوية ومحتوى الحضارة ، اللهم إلا إذا أعطاها محتواها القومي الذي هو في جوهره محتوى غربي حتى وإن ادعى التمييز في ذلك .

(١) انظر بعض الاشارات القيمة حول تناول هذا الاتجاه التغريبي ونقده وبيان أهم مظاهر أزمته : - د. محسن عبد الحميد ، أزمة المثقفين تجاه الاسلام ، القاهرة : دار الصحوه ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م ، ص ٤٩ وما بعدها .

ثالثاً: مستوى تناول في الفكر الغربي : - (١)

لاشك أن حصر تناول الفكر الغربي في قضية الحضارة ومتعلقاتها عملية شاقة تتطلب جهداً بحثياً مستمراً ومتواصلاً للأطروحات الغربية المتطورة في هذا المقام ، بل إنها كذلك تتطلب جهداً جماعياً قادراً على تفهم الفكر الغربي في أصوله المعرفية والفلسفية وتمثل هذا الفكر ضمن سياقه

وأ ؟ المرجعية وفلسفته الأساسية حيال الانسان والكون والحياة ، كما عليه أن يأخذ في الاعتبار طبيعة التفريع في الفكر الغربي إلى فروع علمية هي في حقيقتها تنتمي إلى عائلة معرفية واحدة إن صح هذا التعبير ، وفي زحمة هذا التفريع نسي الأصل المستقر منه ، ومن ثم بدى توجهاً مديناً يبرز في الغرب يؤكد على التكامل المنهجي والتداخل بين العلوم والمعارف ، ويصرف النظر من هذا التوجه وطبيعته ومحاولة نقر قواعده الأساسية أو تفاصيل عناصره ، إلا أنه يشير إلى توجه التكامل المعرفي ، الذي ولد لطبيعة النظرة التجزئية والجزئية في الفكر الغربي الجمع بين فرعين معرفيين أو أكثر داخل فروع أخرى للمعرفة ، ولم ينظر إلى حد ما لعملية التكامل على أساس القواعد الفلسفية الأساسية من جانب والتداخل بين موضوعات العلوم مع اختلاف منظوراتها ، وبما يؤكد ضرورات التكامل في التحليل بين جملة العلوم الانسانية والاجتماعية

وظل التعامل في الفكر الغربي مع قضية الحضارة في معظمه يتراوح بين اتجاهين: -

الأول : - ينظر إلى قضية الحضارة من منظور التغير والتبدل والصعود والهبوط في محاولة للتفسير الحضاري للتاريخ من أمثال توينبي وشبنجلر وهم في هذا تلامذة على ابن خلدون مع اختلافات طفيفة في التقييم والتحليل ، وتوظيف ذلك في الوصول إلى نتائج معينة .

الثاني : - والثاني يكرس النظرة المركزية للحضارة الغربية ويزكي وسائلها وقيمها ومؤسساتها في إطار اتجاه انتشاري يؤكد على منظوره في التنمية والتحديث ، ورؤية في التخلف والتأخر ويحاول تعميم هذه الرؤية فكرياً وثقافياً في أنحاء المعمورة بغض النظر عن اختلاف الأنماط المجتمعية الحضارية .

(١) يمكن تبين إشارات إلى مجمل هذه الاتجاهات في الباب الثالث من ندوة « الاسلام والحضارة » والذي كان عنوانه : تحديات الحضارة الغربية المعاصرة : - د. محمود محمد سفر ، التحدي الحضاري وكيف نواجهه أحمد فون ؟ التحديات الثقافية المعاصرة التي تواجه الأمة الاسلامية ، د. التهامي نقرة ، الاسلام ومواقفتنا من حضارة العصر . فيصل حسون ، التحديات الحضارية المعاصرة للأمة الاسلامية ، المرجع السابق ، المجلد الثاني ، ص ١١ وما بعدها .

إلا أنه يظل هناك مستوى ثالث من التناول الحضاري في الفكر الغربي مارسنه مدرسة الاستشراق والكتابات المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط وعالم المسلمين ، وكتابات التنمية السياسية والتحديث ، ومؤخراً كتابات الصحوة واليقظة والنهضة والبعث الاسلامي . (١)

ومعظم هذه التأليفات : -

(١) درست الجانِب المادي في الحضارة الاسلامية ولم تول أدنى اهتمام لأثر العقيدة الفاعلة في بروز الحضارة الاسلامية ، وأثر التخلي عن هذه العقيدة في تدهورها وضعفها . فهي وفق معايير غربية قيمت الحضارة الاسلامية فحصرت ذلك في متابعة فنون العمارة الاسلامية وخلافها من مظاهر مادية . وربما هذا وجد مجاله الخصب في مدارس الاستشراق والتي واكب نفس هذا التوجه من داخل مدرسة الاستشراق ذاتها توجهاً آخر يحاول الهجوم على عقيدة الاسلام والمسلمين وربطها بالتأخر والتخلف واعتبار ذلك عقبة في طريق الاصلاح .

(٢) مهد هذا الاتجاه الاستشراقي ضمن مقولاته المتعددة والمتنوعة للكتابات الخاصة بمنطقة الشرق الأوسط وعالم المسلمين وكذا الكتابات التقييمية للتطورات السياسية ومحاولات التحديث الذي انطلق من مقولة أساسية مفادها استبدال عناصر الثقافة التقليدية بثقافة مدنية حديثة كشرط لعملية التنمية السياسية والتحديث ، وقصدوا بالثقافة التقليدية كل موروث ثقافي بصرف النظر عن محتواه وعالجوا مضمونه - خاصة الاسلام - وفق دوجمات استشراقية عفى عليها الزمان وثبت خطئها وتساهلها وتسطيحها للأمور والتشويه والدرس المتعمد فيها .

ومن ثم اقترحت هذه الكتابات ضرورة اتباع القواعد الأساسية لعملية التحديث على النمط الغربي وفق إيمانها بإمكانية الانتشارية لإحكام حلقات التبعية على العالم الثالث وعالم المسلمين وسفهدت من محاولات الاصلاح الحضاري التي تؤكد على هوية الأمة ، بينما اختصت بعض هذه النماذج الاصلاحية والتقطت جزءاً من أفكارها اعتقدت أنه يشكل الأرضية الخاصة لأفكارها واختصتها بمسمى التجديد تزكية له واتباع أفكاره كمقدمة أساسية لعملية إحلال ثقافي تقريبي كامل .

(١) من الجدير بالذكر أنه من الضروري الإشارة إلى ذلك التوجه الذي يبرز في الفكر الغربي لنقد الحضارة الغربية من داخلها ، وهذا التوجه تتبين بعض عناصره في مواضع مختلفة من هذا الكراس .
انظر بعض إشارات حول إنحفاق النظرة الغربية للإنسان وأثر ذلك على نظراتها الحضارية في : د. نبيل صبحي الطويل ، كتاب إنسانية الإنسان تأليف رينيه دويو . ضمن ندوة الإسلام والحضارة ، مرجع سابق ، م ٢ ، ص ٨٥ وما بعدها .
سيد قطب ، الإسلام ومشكلات الحضارة ، القاهرة : دار الشروق ، ط ٨ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٣) أما المستوى الثالث فلم يكن يقل تعسفاً واستهلاكاً للمقولات الاستشراقية وكتابات منطقة الشرق الأوسط ، والذي جعل موضوعه - ظاهرة الصحوة الإسلامية والمشاريع التي تقدمها لعملية الإصلاح .

وقد اهتم هذا التوجه ؟ الحركات الإسلامية في محاولة منها لقراءة مستقبل المنطقة والتحذير من التطرف أو ما تسميه الإرهاب ، وعالجت ظاهرة الصحوة - كمنهج الكتابات الاستشراقية في بواكيرها - كظاهرة مرضية ، يجب الحساب لها ومواجهتها بشتى الطرق .

وتابعهم في ذلك التيار اللاديني - العلماني الذي دبح هذا الفهم الاستشراقي والقومي لظاهرة الصحوة في محاولة منه للدفاع عن حصونه الفكرية التي اكتسبها خلال فترات التغلغل اللاديني . وظل هذا التناول في مجمله يهمل أي قاعدة للتمايز الحضاري وإمكاناته ، والتميز والاختلاف حتى في المفهوم الحضاري ذاته وكذا منظومة المفاهيم الحضارية ، والاختلاف في الوسائل والغايات .

رابعاً: مستوى التأسيس الديني لمفهوم الحضارة : -

يمكننا القول أن هذا المستوى في التأسيس الديني للحضارة - فيما عدا الإسلام الذي يؤكد على نمط معين في إطار من الدعوة والامتناع أن معظم الأطروحات المخالفة التي تستند إلى الكاثوليكية أو اليهودية قد مارست تأسيساً دينياً في مظهره ولكنه في جوهره توظيف للدين في عمليات السيطرة الحضارية ، وفي إطار استثمار سطوة التأثير للمشاعر الدينية في عملية التجميع من خلال مخاطبة نوازع عنصرية وعرقية في حقيقتها مغلفة دينياً .

وإذا كان ذلك لا يبدو واضحاً في الكاثوليكية الدينية رغم ممارستها لها

في حقب تاريخه بل إن هذه الممارسات مازالت لها بقية ضمن التأكيد على مركزية الحضارة الغربية ، فإنه يبدو واضحاً بصورة بيّنة في اليهودية التي تأسست في منظمات هيأت المناخ الدولي لقبول دول إسرائيل الممثلة للصهيونية حيث تم إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية .. حتى أن م . نور دار شريك هرئيل قد هدم بعد إنشاء تلك المنظمة مباشرة ... الصهيونية لا تنتظر ولا تطلب أن يعود إلى فلسطين جميع اليهود في نصف الكرة الأرضية ، أولئك الذين يشعرون بأنهم في حال جيدة يستطيعون أن يبقوا كل في مكانه نتمنى لهم ؟ أن يزداد صلاح أحوالهم ، وهذا بالطبع سيكون حالما تظهر وتبدأ بالازدهار الحياة المستقلة اليهودية في فلسطين ... إنها ستكون مركز ربط قوي لليهود في نصف الكرة الأرضية الباقية في أمكنتهم ، مركزاً سيكون له بالنسبة لليهود أهمية أكبر من روما بالنسبة للكاثوليك في جميع البلدان . هذا سيكون جملة عصبية فريدة شاملة لكل العالم . (١) وكثير نحو ذلك ، هذه الرؤية الهادفة إلى السيطرة اليهودية على مراكز القوى والتأثير في الدول المختلفة بما فيها الدول الكبرى يحرك نظرتهم لمسألة الحضارة ؟ اليهودية وسيطرتها والوسائل التي تتبعها في سبيل ذلك دون أدنى اعتبار للقيم والأخلاق ، ومن ثم يمثل هذا الطرح والتناول تناولاً مكيفيلياً واستعماريّاً لبناء الحضارة يستثمر كل الوسائل مهما كانت خسيصة في تحقيق ؟ اليهودية .

(١) انظر في هذا : أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتي ، الصهيونية الدولية : تاريخها وسياستها ، ترجمة : محمد الجندي - بيروت : دار ابن رشد والفارابي ، ١٩٧٩م ، ١٧ وما بعدها ، ص ١٢٢ وما بعدها .
انظر كذلك : - روجيه جارودي ، ملف إسرائيل : دراسة للصهيونية السياسية ، ترجمة : د. مصطفى كامل فودة ، بيروت - القاهرة إدارة الشروق ، ط ٢ ، ١٤٠٤هـ ص ٧ وما بعدها .

(٣) منهجية الدراسة :

في إطار هذا السياق السابق ، وفي ظل رصد أهم جوانب القصور المنهجي للتعرض لمسألة الحضارة فإن هذه الدراسة يجب أن تؤكد على مجموعة من القواعد والأسس المنهجية :

أولاً : - التعريف بمفهوم الشهود الحضاري وتفضيله عما عداها من مفاهيم .

ثانياً : - التعريف بمنظومة المفاهيم الحضارية التي تسهم في بيان مفهوم

الحضارة وضبطه ، ومثل ذلك : -

- (١) الأمانة والتصوير الحضاري .
- (٢) التكريم الانساني ومكانه من العملية الحضارية .
- (٣) التسخير وإمكانات البناء الحضاري .
- (٤) الاستخلاف والمسيرة الحضارية .
- (٥) العبادة مفهوم حضاري شامل .
- (٦) العمارة الحضارة ك وراثه الأرض وعمرانها.
- (٧) الدفع الحضاري والتجدد الحضاري وعملية التغيير .
- (٨) السنة الحضارية والتفاعل الحضاري .
- (٩) الابتلاء كحال ملازم للعملية الحضارية .
- (١٠) الاستجابة الحضارية .
- (١١) التمكين الحضاري وفعل التمكين « الإحياء الحضاري »

ثالثاً : - المنهاجية المقارنة والتي تضبط إلى حد كبير التوجه العاطفي في دراسة حضارة المسلمين ، وطبيعة النظرة إلى الحضارات الأخرى ، وأهمها الحضارة الغربية باعتبارها الحضارة المسيطرة . بحيث تقدم عناصر التميز الحضاري وإمكانات تجسيدها في الواقع المعاش ؟ بما يحقق أهم شروط العمارة الحضارية وهو الوعي بالذات والموقف ، والوعي بالغير . ذلك أن الاكتفاء بفقد الحضارة الغربية وبيان أزمته ، والتغني بأمجاد حضارة المسلمين ليست إلا إضافة للأزمة الحضارية وتفاقمها في عالم المسلمين ، بما لا يؤدي إلى الخروج منها ، وزيادة عقدها إحكاماً وتعقيداً .

رابعاً : - ضرورة النظرة إلى مفهوم الشهود الحضاري باعتباره مفهوماً شاملاً ومتكاملاً يجمع في طياته أبعاداً كثيرة ، سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وكذا مستويات عقيدية ، وفكرية ، وتنظيمية ، وحركية ، وهذا يفرض على القائمين بصياغة هذا النموذج للشهود الحضاري البعد كلما أمكن عن الرؤية التجزئية لهذه العملية والطرح الأحادي ، حتى لا يؤدي هذا وذاك إلى تشويه المفهوم في نهاية الأمر .

خامساً : - إن الطبيعة الحضارية في الشهود في الرؤية الاسلامية تتطلب ضرورة بناء أنساق فكرية وأنماط قياسية مختلفة تعتمد في تأسيسها على منظومة

القيم الاسلامية ، وكذا مقاصد الشريعة .

كما تفترض من ناحية أخرى الاستعانة بفكرة النماذج التاريخية الحضارية سواء كانت تلك التي تطرحها ممارسات المسلمين في فترات تاريخهم المختلفة وكذا من الخبرات التاريخية الحضارية الأخرى ونماذج التعامل معها .

سادسا : - إن الشهود الحضاري يستلزم بطبيعة الوعي بأهمية الدور القيادي للأمة في سعيها لتحقيق شهادتها واستخلافها في الأرض وهو ما يفرض أن تكون أمانة ورسالة صياغة هذا النموذج للشهود الحضارية حيلة تبني على أساس من القناعة والوعي الذاتي لا ردود الأفعال المنفعلة والعاطفية متجاوزة بذلك مواقف الفكر الدفاعي والوقوف عند حدوده ، وقضاياه الجزئية .

(٤) الأقول الحضاري : -

الحقيقة التي لا ينكرها منصف أن قيادة العالم اليوم بيد الحضارة الغربية بشقيها الرأسمالي والشيوعي .. حيث يحاول جناحا الحضارة في صراع معلن إثبات أهليتهما لقيادة البشرية من خلال توسعة الرقعة التي تدين بالقيم والمبادئ التي يحاول المعسكران تأصيلها في نفوس الناس ، وكذلك توثيق الروابط مع الدول التي تدور في فلكهما وتتفياً مظلة أحد المعسكرين .

إن الحضارة الغربية بشقيها نمت وأنجبتها رحم واحدة ، وهي وجهان لعملة واحدة لأن مجموعة التصورات والقيم والمنطلقات فيهما واحدة .

وموقف الاسلام من تلك الحضارة بوجهيها واحد ، لأنها من مشكاة واحدة لا أصل لها في الثبات ، لأن الانسان - بقدراته المحدودة - هو الذي شاد صرح هذه الحضارة بمعزل عن منهج الله عز وجل ، ولأن الكوارث التي حلت بالبشرية حين تنكبت جادة الصواب لم تقتصر على واحدة من أجنحة هذه الحضارة لتكون برهاناً على صحة مبادئ الأخرى .

هذه الحضارة التي كانت تبدو خلال عقود خالية قوية متماسكة تهفو القلوب إليها ، وتفتتن الأنظار بمنجزاتها المادية بدأت تنكشف عن عيوب وأمراض كثيرة وأصبحت عاجزة عن إخفاء آثار التآكل التي شدت إليها

أنظار العقلاء من أبناء تلك الحضارة فعلت أصواتهم معلنة أن نجمها بدأ يهوى ، وأن الحضارة الغربية التي خيل للبعض خلودها آيلة إلى السقوط بعد أن أصبحت تنوء بمشكلات لا قبل لصناع تلك الحضارة بمعالجتها .

لقد نمت شجرة الحضارة الغربية في تربة مادية وكانت أول ثمارها الايجابية هي تقدم العلوم الطبيعية والاختراعات التكنولوجية الذي لم تر البشرية مثله ، أما الثمار المسمومة فكانت ذلك الضياع القاتل الذي يحاول أبناء الحضارة المادية الهروب منه بعد أن عجزت كل الثمار الايجابية عن تحقيق طموحاتهم ، لقد نما العقل وتضخم على حساب الروح التي ضمرت وانكسرت حين عجزت حضارة المادة عن تحقيق أشواقها وطموحاتها .

صحيح أن البشرية أحرزت انتصارات ضخمة في عالم الصحة والعلاج ، وحققت ما يشبه الخوارق في عالم الصناعة والانتاج وانتصارات باهرة في كشف الفضاء والأقمار الصناعية ، ولكن ما أثر هذا كله في حياتها النفسية ؟ هل وجدت السعادة والطمأنينة والسلام ؟ لقد وجدت الشقاء والقلق والخوف ، لأنها لم تتقدم في تصور أهداف الحياة الانسانية وغاية الوجود الانساني تقدمها في مضمار الحضارة المادية وحسبها الرعب والفرع اللذان تعاني منهما من مثل الرعب النووي أو مرض (الإيدز) .

تلك هي الحضارة التي نمت في منبت السوء فأنت ثمارها مرأ حنظلا ، وها هي الأصوات اليوم تتعالى من هنا وهناك منذرة بسوء مصير البشرية في ظل حضارة خاوية من الإيمان خاؤها من الروح الانسانية .

صيحات الخطر : -

تتعالى الصرخات من أبناء هذه الحضارة الذين أدركوا خطورة انحدار البشرية إلى الهاوية في ظل معطيات تلك الحضارة متنبئين بسقوطها بعد أن أصبحت على شفا جرف هار .

فهذا « الكسيس كاريل » في كتابه « الانسان ذلك المجهول » يدين الحضارة المادية ويرى أنها وليدة خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس وأوهامهم ، وأن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد لم تجن منه البشرية سوى القلق والهموم فيقول : « حقيقة الأمر أن مدينتنا مثل

المدن التي سبقها أوجدت أحوالاً معينة للحياة من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحلية ، وذلك لأسباب لا تزال غامضة ، إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ويتساءل عن جدوى الحضارة التي لا تجلب إلا الشقاء والتعاسة والانحطاط الخلقي فيقول « إذ ما جدوى الراحة والفخامة والجمال وأسباب تعقيد حضارتنا إذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة بها فيما يعود علينا بالنفع ؟ حقاً إنه لمما لا يستحق أي عناء أن نمضي في تجميل طريق حياة تعود علينا بالانحطاط الخلقي ، وتؤدي إلى اختفاء أنبل عناصر الأجناس الطيبة . »

والمستر (دالاس) وزير خارجية أمريكا الأسبق أثار في كتابه « حرب أم سلام » إلى الخلل القائم في الحضارة الغربية قائلاً : « إن هناك شيئاً ما يسير بشكل خاطئ في أمتنا ، وإلا لما أصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية . وهو يرى أن التقدم المادي والمبالغة في وصف معطيات الحضارة الغربية يقابلها الإفلاس الروحي الذي يشكو منه أبناء تلك الحضارة فيقول : « ونستطيع كذلك أن نتحدث ببلاغة عن الترقم المادي الذي حققناه ، وعن روائع الانتاج الجماعي ، وعدد السيارات وأجهزة الراديو والتلفزيون التي يمتلكها أفراد شعبنا ، ولكن المبالغة في وصف الماديات تعطي فكرة بأننا قد أفلسنا من الناحية الروحية . »

ويرى أن الحضارة الغربية قد فقدت بريقها ولم يعد لديها ما تقوله للعالم الذي يبحث عن مخرج من عنق الزجاجة فيقول « لن تكون هناك فائدة من إنشاء (أصوات أمريكا) أخرى عالية الصوت ، إلا إذا كان لدينا شيء نقوله يكون أكثر إغراء مما قيل حتى الآن » .

إذا كان (كاريل ودالاس) يعلنان عن خيبة البشرية في الحضارة الغربية فإن الفيلسوف الانجليزي الشهير (برتراندرسل) يعلن عن اضطراب الحضارة الغربية إلى إخلاء موقع قيادة البشرية ، ونهاية تسلط الرجل الأبيض - ممثل الحضارة الغربية - على مصير البشرية فيقول : « لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض ، وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانوناً من قوانين الطبيعة وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقي أياماً رضية كتلك التي لقيها خلال أربعة قرون » وليس الرجل الأبيض إلا رمزاً للحضارة الغربية التي بدأ أفول نجمها ، ويتحدث رسل عن شقاء الانسان في ظل الحضارة الغربية المادية فيقول : « إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ، ولكنهم محرومون من نعمتها في العالم الحديث . واليوم أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة والسعادة » (١)

(١) انظر كتابي الأستاذ سيد قطب (الإسلام ومشكلات الحضارة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م) و (المستقبل لهذا الدين ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) طبع دار القرآن الكريم للعناية بطبعه ونشر علومه ببيروت لبنان - توزيع الاتحاد الاسلامي العالمي للمنظمات الطلابية .

وهذا « دنيس دور جمون » من غلاة المدافعين عن الشخصية الأوروبية ومن أشد المتفائلين باستمرار الحضارة الغربية إلى الأبد ، يشكو من الأصوات التي تعلن عن سقوط حضارته ، ويقرر أن القرن العشرين الذي شهد معالم الحضارة الغربية وسلطانها يمتد عبر الكرة الأرضية كلها ويحمل معها شرورها ومنتجاتها ثم في حالات نادرة قيمها ودائماً تفاهتها ، قد شهد في الوقت نفسه من القائلين بسقوط الحضارة الأوروبية والمتنبئين به عدداً يتضاعف بصورة مستمرة ، وما يلفت النظر أن معظم المتنبئين أوروبيون وهم بدلا من أن يتحدثوا بإعجاب عن انتشار العبقورية الأوروبية في العالم كله وأن ينبهوا إلى أهمية هذا الانتشار يفضلون الحديث عن كسوف الحضارة الأوروبية . (١)

أما (بول فاليري) الشاعر الفرنسي الذي كان له تأثير كبير في تيارات الفكر الأوربي فقد هتف بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٩

بعبارتها الشهيرة : « فمن الحضارات الأخرى نعرف الآن بأننا ميتون) ثم يضيف (ولن ندرك الآن أن هوة التاريخ هي من الاتساع بحيث تستوعب العالم كله . نحن نشعر أن في الحضارة من الضعف والتهافت ما في حياة الفرد) (٢)

أما (فولني) وهو أحد رجال الفكر الأوروبيين فقد ترك وراءه تأملات حول مصير الحضارة الغربية تلتقي مع وجهة (فاليري) يقول : (ماذا أصاب تلك البدائع الرائعة التي حققته يد الانسانية ؟ أين هي حصون نينوى ، وجدران بابل ، وقصور برسيبوليس ؟ والمؤسف أنني زرت الأماكن التي كانت مسرحاً لكل هذه العظمة الرائعة ثم لم أر غير الضياع والوحدة . وما يدريني لعل مسافراً مثلي في المستقبل يجد نفسه عند السين والتايمز يجلس باكياً فوق بقايا الفتات التي تحولت إليه معالم الحضارة الكبيرة حول هذه الأتهار) (٣) .

(١) انظر مقالة بعنوان (المتنبئون بالسقوط) للأستاذ رمضان لاوند ، نشرت في مجلة البلاغ الكويتية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

و(هيجل) الفيلسوف الألماني الذي سار الكثيرون على أثره في تاريخ الفلسفة الغربية الحديثة هو صاحب الفكرة القائلة بأن كل شعب هو (فرد في مسيرة التاريخ) فهو بالتالي خاضع ككل فرد لقوانين النمو والازدهار ثم السقوط الحتمي ، على أن هيجل في الوقت نفسه كان يظن أن الحضارة الأوروبية هي قمة التاريخ التي ليست وراءها قمة ، ولو حاولنا أن نطبق نظريته الجدلية في تعاقب الحضارات لأدركنا أنها انتهت أو ستنتهي في المستقبل تحت ضغط القوانين الحتمية بما فيها الحضارة الأوروبية المعاصرة . (١)

أما (كولن ولسون) فيعد كتابه «سقوط الحضارة» كتاباً جريئاً في نقد حضارة الغرب ، وهو كتاب يتحدث صاحبه عن هدفه منه قائلاً : « يبدو أن الغرض من هذا الكتاب أن أقول شيئاً عن حاجة هذا الصر إلى دين جديد يلوح فيه أن الكنيسة قد فقدت كل صلة لها بالمشكلات التي تواجهها فيه » .

ويرى (كولن ولسون) أن أية حضارة تصل لحظة أزمته يوماً ما ، وأن الحضارة الغربية قد بلغت هذه اللحظة ، وأن هذه الأزمة تهدد بالدمار أو بالسمو إلى أشكال أعلى ، والمعروف حتى الآن أنه لم تواجه أي حضارة هذا

التحدي إلا وكانت تخفق في مواجهته ، والتاريخ هو دراسة للهيكل العظمية التي خلفتها الحضارات المخفقة ، تماماً كالهياكل العظمية التي خلفتها الحيوانات المنقرضة كالديناصور ويقرر أن الدين وهو العمود الفقري للحضارة قد تيبس في الكنيسة . (٢)

أما الفيلسوف الأمريكي الشهير (جون ديوي) فإنه يقول : « إن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها ولا تثق بقدرة هذا العلم في خلق قيم جديدة تدمر نفسها بنفسها » .

وفي عام ١٩٧٠م أصدر (رينيه دوبو) كتابه (So Human An Animal) باللغة الانجليزية ، وقد عربه الدكتور نبيل الطويل باسم « إنسانية الانسان » . والمؤلف عالم ومحاضر شهير وحائز على عدة جوائز منها جائزة نوبل ، وقد وصفت جريدة (الأوبزرفر) اللندنية الكتاب بأنه (هجوم مدمر على المجتمعات الصناعية الاستهلاكية الحديثة ، واعتقادها المحزن بأن السبيل الوحيد للسعادة والغنى الحقيقي مرصوفة بسلسلة من التركيبات الاقتصادية والتقنية) يقول المعرب في مقدمته للطبعة العربية من الكتاب : يوجه البروفسور (دوبو) أقسى نقد لحضارة الغرب وأعنف هجوم على مجتمعاتها المادية التي يسودها القلق ، ويشكو من استعباد التكنولوجيا للانسان ، فالآلة هي (الآلة المعبود) في المجتمعات الغربية حيث فقد الانسان إنسانيته وجافى الفطرة ولوث البيئة وخرب الطبيعة ، فاستحكم به التوتر العصبي والاضطرابات النفسية بعدما أضع إيمانه وفقد روحه .

ولقد عربت الكتاب لأمرين : -

أولهما : إيصال بعض ما فيه لمدعى الثقافة من المبهورين بالمجتمعات الغربية بجناحيها الرأسمالي والماركسي ، فلقد شهد شاهد من الأهل أن الغرب ضائع زائع البصر فاقد البصيرة ، قال رئيس بلدية (كليفلند) الأمريكية منهكماً : (إذا لم تكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل الذي رفع انساناً إلى القمر بينما هو غائص إلى ركبتيه في الأوحال والقاذورات) .

وثانيهما : لفت نظر أولي الأمر في العالم العربي حتى لا يخدعوا بموضوع النمو والتنمية ، وينجروا دون دراسة معمقة ووعي كاف وراء الغربيين في هذا المضمار ، فليس كل نمو تقدماً ، والخرافة التي تقول (النمو

هو التقدم) ما هي إلا (توراة الدمار) كما سماها (أودال) ناظر الخارجية الأمريكية الأسبق ، والتطلع إلى موقف إنساني غير خاضع للتكنولوجيا ليس رجعية ولا انهزامية بل هو موقف وجهد بطولي على حد تعبير دوبرو . (١)

إنسانية الانسان ، ترجمة د. نبيل الطويل ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، ١٩٧٠م.

أما (جيبون) المؤرخ الذي يعد من سدنة الدراسات التاريخية الحديثة فقد تنبأ منذ مائتي عام تقريباً بانحلال الحضارة الأوربية وزوالها الحتميين في نهاية القرن العشرين . (١)

أما (الدوس هكسلي) فإنه يقرر أن الانسان في عصرنا لم يعد يستهلك الأشياء ، بل هي التي تستهلكه وأنه صار عبداً لعمله ، فانحدرت قيمته الانسانية وعاش في أجواء القلق وفي رواية له باسم « جسر في طريق الانهيار » يورد هذه الجملة على لسان أحد شخصياتها « أهداف إلى تكوين وعي مضاد للحضارة المرعبة ، أود أن أقوم بعملية حرق وتطهير لها » . (٢)

وهناك كتب وأعمال أدبية كثيرة تعرضت لموضوع الحضارة الغربية مثل : «الأماكن المسمومة» لـ (ترومان كابوت) و«المهزلة البشرية» لـ (وليم سارويان) و « الغزو المجهول » لـ (ميشيل رونالد) و « أوروبا بعد المطر » لـ (ألان بوزنسن) و « الساعة الخامسة والعشرين » لـ (كونستانتان جورجيو) . وفي هذه الكتب والأعمال الأدبية إدانة للحضارة الغربية ، أو اعتراض على جوانب منها أو تنبيه على مخاطر تحيط بها ، أو حكم عليها بأنها في طريق الانحلال (٣) .

أما (فيلا سبازا) فإنه يقول : « إن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديدة بكفكفة دمة واحدة ولا خلق ابتسامة واحدة ، وليس أجدر من أمم الشرق المحتفظة بالثقافة العربية الاسلامية والقائمة على إذاعتها ، بوضع حد نهائي لتدهور الغرب المشؤوم الذي يجبر الانسانية إلى هوة التوحش والتسلط المادي » . (٤)

(١) انظر مقالة الأستاذ رمضان لاوند التي سبقت الإشارة إليها .

(٢) انظر (الاسلام وأزمة الحضارة الانسانية المعاصرة في ضوء الفقه الحضاري) للأستاذ عمر بهاء الدين الأميري . دولة

قطر ١٤٠٦هـ - ١٩٨٧م.

(٣) المصدر السابق .

وفي مارس ١٩٨٢م نشرت (الهيرالد تريبيون) مقالا للطبيبة الاسترالية (هيلين كالديكوت) بعنوان « الوباء الأخير الحاطم » وهذه الطبيبة تعمل مع أطباء آخرين ضد استخدام الأسلحة الذرية . وفي رأيها أن الحروب الذرية لن يكون فيها غالب ولا منتصر ، لأن بعض مناطق المعمورة سيتلاشى نهائياً ، وبعضها الآخر سيبقى فيه بعض البشر معرضين لأكبر الأخطار والحروق وبقاؤهم سيكون أكبر بلية عليهم ، وقد أطلقت على الحروب الذرية المحتملة الوقوع (الوباء الأخير الحاطم) .
(١)

أما (روبرت هي) أستاذ التاريخ في جامعة (ماركويت) في أمريكا فإنه يقول : « إن أمريكا عام ١٩٨١م مفككة إلى حد لا يطاق ، ونحن في أمس الحاجة إلى الاحساس بالحياة الاجتماعية ومن السهل أن نفهم أمريكا الضائعة الأرواح حيث لا يرتبط الفرد بشئ فهو لا يبحث عن هويته يبحث في العمل وفي المهنة وفي التقدم الاقتصادي عن علامة تميزه وتخبره من هو » . (٢)

أما الكاهن المشهور (جيرى فولول) فإنه يقول في كتابه « اسمعي يا أمريكا » : « لدي إحصاءات مرعبة عن حوادث الطلاق وتدمير الأسرة والاجهاض وجنوح الناشئة والفوضى الجنسية وتعاطي المخدرات وجرائم القتل ، إنني أشاهد حطام الانسان والأرواح المهدورة بأكداس تفوق الاحصاءات ، إن أمريكا بحاجة سريعة إلى الانقاذ الروحي والأخلاقي إن كانت تريد ألا تهلك في القرن العشرين . (٣)

(١) المصدر السابق

(٢) انظر مقالة للدكتور ماجد عرسان الكيلاني بعنوان « رسالة المسلم في المجتمع الأمريكي » في مجلة الأمة الفطرية ص ٢٧ السنة الثالثة العدد ٣١ رجب ١٤٠٣هـ - إبريل ١٩٨٣م .

(٣) المصدر السابق .

(٥) ظاهرة الانتحار في الغرب : -

ولعل الوقوف عند ظاهرة الانتحار في الغرب ، يقدم مؤشراً ذا أهمية خاصة يدل على حالة اليأس والاحباط الذي يتردى فيه كثير من المشاهير هناك فضلا عن العاديين .

وفي عام ١٩٤٢م انتحر الروائي الكبير (ستيفان زفايچ) في البرازيل في إحدى ليالي الكرنفال الصاخبة التي تحتفل بها الريدوجانيرو ، إذ تناول السم مع زوجته بعد أن كتب في إحدى قصصه الأخيرة « إن العالم الذي نعيش فيه لم يستطع أن يقدم لنا الشئ الكثير في نفس الوقت الذي لن نستطيع فيه المشاركة في تغيير أي شئ إننا لا نعدو أن نكون مجرد أشباح وذكريات » .

وفي عام ١٩٤٩م انتحر الأديب الألماني (كلاوس مان) ابن الكاتب المشهور (توماس مان) في مدينة كان الفرنسية فكتب والده ينعيه مذكراً بصديقه (ستيفان زفايچ) وكأنه يتساءل عن سبب انتحار الأدباء ويعثر على السبب في العزلة الأدبية والفكرية والشعور بالغرابة .

وفي عام ١٩٥٠م انتحر الأديب الإيطالي (سينزر بافيزه) في فندق متواضع في مدينة تورينو بعد أن وصل إلى قمة الأدب الإيطالي أنر نشر روايته الطويلة « مهنة الحياة » التي تفوح منها رائحة الموت والانتحار .

وفي عام ١٩٦١م اهتز العالم لانتحار الأديب الأمريكي الشهير (أرنست همنجواي) الذي اختار أن يضع نهاية حياته بيده بعد أن بلغ من الشهرة الأدبية داخل أمريكا وخارجها ما يجعله في مصاف الأدباء العالميين .

وفي عام ١٩٧٨م انتحر الكاتب الفرنسي (جان ايوري) الذي التزم طيلة حياته بأدب الموت مقتضياً آثار ملهمه الفكري (هاينريش فون كلايست) الذي انتحر عام ١٨١١م .

ويمكن أن يعد (جان ايوري) أقدر الكتاب والأدباء الأوربيين في التعبير عن أدب الانتحار الذي أطلق عليه « امتياز الانسان » وعندما كان طلبته يوجهون إليه سؤالاً ساخراً عن السبب الذي يجعله ييجم عن الانتحار وهو الذي ألف كتاب (محاضرات حول الانتحار) كان يجيبهم بقوله « صبراً أيها الرفاق صبراً » . وفي يوم افتتاح معرض للكتاب الدولي في مدينة فرانكفورت عام ١٩٧٨م انتحر (جان ايوري) وطبق على نفسه ما كان

يقوله من قبل .

وفي عام ١٩٨٠م بالغ الشاعر الألماني الدكتور (هانز باير) الذي عرف في أشعاره باسم (ترول) في الاحتفال بانتحاره فقد عمد في ذكرى ميلاده الحادي والستين إلى تناول كمية كبيرة من الحبوب المنومة بعد أن ارتدى حلته الجديدة ونثر الزهور على سريره الذي استقبل عليه الموت ولم ينس قبل موته أن يرسل بطاقات نعيه إلى أصدقائه ويكتب فيها « أصدقائي الأعزاء لقد استبقت بوفاتي مراسم الدفن السخيفة ورؤية المشيعين والجو الزائف المحيط بالجنائز » .

وفي عام ١٩٨٣م دخل خادم الكاتب البريطاني المعروف (ارثر كوستلر) غرفة جلوس سيده فوجده جالساً على أريكته المفضلة التي كان يطالع فيها وبجانبه زوجته وكان الاثنان ميتين بعد أن عمدا إلى الانتحار .

وربطت مجلة (تايم) الأمريكية بين انتحار (كوستلر) وبين كتابته مقدمة دليل صغير عنوانه (مرشد تحرير الذات) أصدرته سنة ١٩٨١م جمعية بريطانية تضم أكثر من ثمانية آلاف عضو ويحوى الدليل وصفات عديدة للانتحار وهذا الدليل الغريب كما تقول المجلة واحد من أدلة عديدة مشابهة بدأت تنشر في أوروبا وأمريكا بمختلف اللغات مع انتشار جمعيات تشجيع الانتحار التي زاد عددها على ثمانين عشرة جمعية . (١)

(١) انظر مقالا نشرته مجلة العربي في عددها الصادر في رمضان ١٤٠٣هـ - تموز ١٩٨٣م للدكتور أحمد أبو زيد بعنوان (حوار مع الموت ، انتحار آرثر كوستلر) ومقالا للأستاذ فؤاد دواره بعنوان (انتحار كاتب صهيوني) في صحيفة الرياض السعودية ٢ - ٧ - ١٤٠٣هـ - ١٥ - ٣ - ١٩٨٣م وتحقيقاً للأستاذ أحمد كمال حمدي بعنوان (لماذا ينشر الكتاب والأدباء في العالم) في ملحق الأربعاء الذي أصدرته جريدة المدينة السعودية في ٦ - ٨ - ١٤٠٣هـ ومقالة للدكتور علي النملة بعنوان (المتطيرون ووقفه مع المنتحرون) في صحيفة الجزيرة السعودية ١٥ - ٥ - ١٤٠٦هـ - ٢٥ - ١ - ١٩٨٦م .

وفي المستخلصات الاحصائية للولايات المتحدة لعام ١٩٨٤م ورد جدول عن الانتحار في العالم ونسبته بين كل مائة ألف فاحتلت الدانمرك المرتبة الأولى ثم النمسا فألمانيا الغربية فسويسرا فالسويد فاليابان ففرنسا فكندا فبولونيا فالولايات المتحدة الأمريكية .

والملاحظ أن هذه الدول يعيش الناس في معظمها في مستويات اقتصادية عالية

وبعضها يصل في الرخاء إلى درجة الرفاه ومع ذلك نجد فيها من ينتحرون
وبنسب متزايدة مما يجعل أي دارس يتساءل بالحاح لماذا ينتحرون ؟

ولعل الجميع لايزالون يذكرون حادثة انتحار قرابة ألف أمريكي في إحدى دول
أمريكا اللاتينية في أواخر السبعينات من الشابات والشبان الذين اندفعوا
وراء شخص مخبول بحجة استحضار الأرواح وغيرها وهناك وضع لهم السم
وحمل الجميع أكوابهم ليتجرعوها في وقت واحد وقد عرض التلفزيون
الأمريكي الطائرات الأمريكية وهي تنقل جثث المنتحرين إلى ذويهم
المصعوقين .

وثمة حدث لابد أن يقف عنده كل دارس للمآل الذي تسير نحوه الحضارة
الغربية ذلك أنه غني بالدلالات والدروس لقد حدث أن انقطعت الكهرباء في
مدينة نيويورك مدة طويلة في عام ١٩٧٧م فماذا حدث أثناء الظلام حيث
ضاعت الرقابة وغاب الأمان وعجز رجال البوليس عن أداء مهمتهم ؟ .

لقد حدثت جرازم سطو وقتل وعنف وتخريب بدرجة تفوق أضعافاً مضاعفة ما
يحصل في الأوقات العادية لقد زال الوازع الخارجي الذي يمنع الناس من
الشر فاتضح جلياً أن الوازع الداخلي ضعيف جداً وأن الأدب في التعامل
والصورة الحضارية للتعایش مع الآخرين أدب كاذب وصورة زائفة لقد
سقط طلاء الزيف وسقطت القشرة الجميلة الكاذبة فظهر الوحش الحقيقي
في أعماق الناس فإذا بهم يقتلزن ويدمرون ويسرقون ومنهم من لا يسرق
حتى يدمر ما يستطيع تدميره قبل أن يسرق ما يريد سرقة ومنهم من
يمارس لذة تحطيم واجهات المحال التجارية وإيذاء الجيران .

ولم يتحرج (نيكسون) من أن يعلن في أول خطاب رسمي له بعد انتخابه
رئيساً في أمريكا « إننا نجد أنفسنا أثرياء في البضائع ولكن ممزقين
في الروح ونصل بدقة رائعة إلى القمر وأما على الأرض فنتخبط في
مناهاة ومتاعب كبيرة . (١)

(١) انظر كتاب الأستاذ الأميري الذي سبقت الإشارة إليه .

أما الجنرال (ديغول) رئيس فرنسا الأسبق فقد قال « إن مجتمعاتنا الأوروبية
فقدت شيئاً ثميناً جداً تحت وطأة تقدمها الضخم وهو الإنسانية وأعني
بها القيم الروحية البشرية العليا فقد قطعت حضارتنا تلك الصلة المعنوية
التي تربط البشر بعضهم ببعض لقد جف شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية

وانحلت » .

وحين سئل عن ميله إلى توطيد علاقات بلاده بالعالم العربي الاسلامي أجاب «
أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية والاسلامية التي حافظت على تلك
الروح الانسانية التي فقدناها سينقذنا من مغبات حضارتنا وسيكون مفيداً
لنا جداً ولهذا فإنني أحرص على تحسين علاقات فرنسا وتوثيقها بالعالم
العربي والاسلامي » .

وقد أعلن (ديفول) في أكثر من مناسبة عن إحساسه بأن الاتحاد السوفياتي
ينوء بمشكلات تنخر في جسده وستنفجر ذات يوم وأن أمريكا تنوء
بمشكلات مماثلة وتساءل هل يمكن للاسلام أن يقدم العلاج لأدواء
الحضارة ؟ (١)

(١) المصدر السابق

ومن الأصوات المتميزة التي ينبغي الوقوف في ساحتها الفكرية أكثر من المعتاد
الفيلسوف الفرنسي المعاصر (جارودي) وهو شخصية سياسية وثقافية
شهيرة لا في بلده فرنسا فقط بل في الساحة العالمية .

عاش هذا الرجل حياة خصيبة غنية إذ نشأ في المجتمع الفرنسي فوجد نفسه
واحداً من الذين يدينون بالمسيحية بالإرث والعادة أكثر من القناعة
والممارسة لذلك لم يكن غريباً أن هجر المسيحية واختار الشيوعية حيث
تبوأ في الحزب الشيوعي الفرنسي مكانة عالية فكرياً وتنظيمياً وكانت له
مؤلفات متداولة بين الشيوعيين لكنه شيئاً بدأ يعترض على الشيوعيين
ودعا في محاضرات له إلى أن تخصب الماركسية فلسفتها بعباء الأديان
عامة والإسلام خاصة وإلا تكون قد حكمت على نفسها بالعقم وقد عرضه
ذلك إلى أزمات وعداوات من رفاقه الذين كتب أحدهم كتاباً ضده سماه
« فلسفة الردة » .

واستمر (جارودي) في بحثه عن الحقيقة ودراسته للإسلام حتى
انكشفت له حقائقه الباهرة وتلبيته لحاجات البشر أفراداً وجماعات فإذا
به يعلن إسلامه ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م وإذا به يتحول إلى ناقد بصير لعيوب
الحضارة الغربية وإلى داعية للاسلام ومدافع عن قضايا العروبة والاسلام
وإلى مبشر بأن الاسلام هو القادر على إخراج الحضارة من محنتها التي
تحياها اليوم لقد أهدى (ألكسيس كاريل) كتابه « الانسان ذلك

المجهول « إلى « أولئك الذين يجدون من أنفسهم شجاعة كافية ليدركوا ليس فقط ضرورة أحداث تغييرات عقلية وسياسية واجتماعية بل أيضاً ضرورة قلب الحضارة الصناعية وظهور فكرة أخرى للتقدم البشري» حقاً إن (جارودي) امتلك الشجاعة الكافية ليعلن إسلامه أولاً وليقرر ثانياً أن الإسلام هو الذي سينقذ الحضارة كلها فكأنه (الفكرة الأخرى للتقدم البشري) التي نادى بها (كاريل) .

ويحدد (جارودي) المؤشرات التي تنذر البشرية بالدمار في ظل الحضارة الغربية بأربعة هي :

- « ١ » الاقتصاد الذي يسيطر عليه النمو المتمثل في الرغبة الجنونية في زيادة وسرعة الانتاج ، إنتاج أي شيء نافع أو غير نافع ، ضار أو مميته .
- « ٢ » السياسة التي تحكمها علاقات اجتماعية داخلية وخارجية والتي يسودها العنف المعبر عن صدام المصالح والنزوع إلى السيطرة بين الأفراد والطبقات والأمم .
- « ٣ » الثقافة العارية من المعنى والغاية فالتقنية للتقنية والعلم للعلم والفن للفن والحياة لغير هدف .
- « ٤ » العقيدة الخالية من التعالي الذي يمثل البعد الانساني للانسان .

ويقول (جارودي) في مقابلة صحفية أجريت معه : « لقد طغت على العالم صناعة الأسلحة وفي عام ١٩٨٢م أنفق العالم الغربي ٦٥٠ مليار دولار في التسليح وهو ما يوازي ٤ أطنان من المتفجرات لكل وجه على الأرض وبمعنى آخر أصبح من الممكن لأول مرة في التاريخ محو أي أثر للحياة على الأرض هذا وفي نفس السنة (أي ١٩٨٢م) يوجد خمسون مليون من البشر في العالم الثالث يعانون من الجوع والأحوال المعيشية المتردية وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أن العالم يسير في طريق ضال دون تفكير في العاقبة . إن القضية هي كيف ننجو بالعالم ، كيف نتخلص من حضارة الغرب ، كيف نختار الطريق الحكيم حتى يمكن للانسان أن يعيش بتوافق مع الطبيعة من ناحية ومع الانسان الآخر من ناحية ثانية ثم بتوافق تام مع الله سبحانه وتعالى . إن الوصول إلى الجواب هو الغرض الرئيسي من حوار الحضارات » (١)

(١) انظر دراسة عن كتاب جارودي (الاسلام وأزمة الغرب) للأستاذ معالي حمودة في مجلة الأمة القطرية في عددها الصادر في جمادى الثانية ١٤٠٥هـ وقد قام بترجمة الكتاب إلى العربية الدكتور رفيع المصري وانظر عن جارودي أيضا كتاب الأستاذ الأميري الذي سبقته الإشارة إليه .

ونشرت صحيفة (نيويورك تايمز) في أعدادها الصادرة خلال شهري شباط وآذار ١٩٨٢م سلسلة من الأبحاث عن انتشار الجريمة وتدمير الأسرة وهروب المراهقين وظهور مرض الهربيز وما قالت « لقد تبين أن المؤسسات الإصلاحية التي تحاول أن تصلح هؤلاء الناشئة ليست إلا مدارس تعلمهم الجريمة حيث يدرّب بعضهم بعضاً على المزيد من أساليب القتل والسرقة وتعاطي المخدرات والجنس وإن هذه المؤسسات في حيرة من أمرها في هذا الموضوع . »

لقد نشرت إحصاءات عن الولايات المتحدة الأمريكية بمناسبة محاولة اغتيال رئيسها ريغان جاء فيها أن جريمة قتل واحدة تتم في كل ٢٤ دقيقة ويجري في كل عشر ثوان اقتحام منزل وسرقة ويوجد من الأسلحة المعروضة للبيع الحر مسدس لكل أربعة وتباع قطعة سلاح كل ١٣ ثانية .

ويمسك (جوزيف كاميليري) في كتابه « أزمة الحضارة » المبضع بيده المتحدية الثابتة ليشرح جسد الحضارة الصناعية الغربية وثقافتها ويكشف عن الأورام القتالة التي تعاني منها كما يقول الدكتور فيصل السامر مترجم الكتاب إلى العربية فالتكنولوجيا التي كان يفترض أن تحرر الإنسان من عبودية الأسلوب التقليدي في الاقتصاد أضحت اليوم سيدة الكائن الإنساني والطالب الذي يتوجه إلى المخدرات والهيبي الرافض بحثاً عن الفردوس الخداع والمراهق الذي يتصدى لت هشيم النوافذ وتحطيم السيارات والأفاق الذي يجد مهرباً في خيل الكحول كل هؤلاء إنما هم ضحايا مناخ القلق المتغلغل والشعور بعدم الأمان ومرض العصاب إن خطورة الأزمة القائمة هي أنها ليست موجهة إلى الجانب الروحي للكائن الإنساني ضحية اللاتوازن إن عليه أن يتعامل مع البيئة الطبيعية لأن الماكينة الاقتصادية تدفعه إلى ذلك من أجل المزيد من الانتاج والاستهلاك لضمان دورانها ولأنه ضمن هذه المعادلة اللامتوازنة قد فقد أدراكه لدوره الخاص وهدفه في الكون وواجهه تجاه نفسه وبين جنسه وبيئته (١).

(١) انظر دراسة عن هذا الكتاب من صحيفة الشرق الأوسط (٤/٥/١٤٠٦هـ ، ١٢/١/١٩٨٦م).

انظر أيضاً بصفة خاصة ذلك الكتاب القيم في نقد الحضارة الغربية :-

الرئيس أحمد بن بله ، الاسلام والمآزق التاريخي للنموذج الغربي الحديث نحو وعي اسلامي معاصر (١٢) ،

مركز الدراسات الفلسطينية ؟ ، ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٣م .

محاولات قاصرة :-

الغربية تقف مكتوفة الأيدي إزاء الانهيار ووقوع الكارثة فأين البديل ؟

(٦) أين البديل ؟

إن الحضارة الغربية بجناحيها (الرأسمالية والشيوعية) تستقي من معين واحد هو (الفكر البشري) الذي لم تعد تربطه أية صلة بأسباب السماء ولا فرق بين أن ترد المستنقع الآسن باليد اليمنى أو اليسرى فلا يرجى إذن تقديم الحلول لانقاذ البشرية من أمريكا وروسيا ومن يدور في فلكهما .

ولو تلفتنا نحو الصين - باعتبارها واحدة من الدول الكبرى - لوجدنا أن الجسور الحمراء التي تصلها بالمعسكر الشرقي بدأت تنهار لتقوم مكانها جسور أخرى تصلها بالعالم الرأسمالي ومعنى ذلك أنها تذبذبت بين هؤلاء وهؤلاء ولم تستطع أن تكون نموذجا جديدا يمكن أن يعد بديلا حضاريا أو نواة لبديل حضاري .

أما اليابان فليست لديها أية طموحات قيادية من خلال قيم ومبادئ فكرية وهي أقرب إلى تمثل قيم الحضارة الغربية المادية التي غدت لعنة على أصحابها ولعل نشوة التقدم التكنولوجي تشغلها عن التفكير في ارتياد الآفاق العالمية إلا من خلال صادراتها الصناعية التي غزت أسواق الغرب ذاتها .

أما الهند فإنها بالرغم من الامكانيات المتاحة لها لتكون دولة عظمى فإنها أعجز من أن تكون بديلا حضاريا بسبب العقائد الدينية السلبية والمتخلفة التي تسود معظم أبنائها وبسبب تنافر النسيج البشري الذي يتكون منه شعبها أو بالأحرى مجموعة شعوبها .

لم يبق في الساحة إذن إلا المسلمون ولم يبق من منهج غير الاسلام لاسيما أن له ماضيا مشرقا في تحقيق كل ما عجزت عن تحقيقه مناهج الأرض .

ولكن الغرب لا يريد أن يكون الاسلام المنهج المنقذ مع أن الصفات التي يطلبها كل من (كاريل ودالاس) في المخلص لا تتوافر في أحد إلا في هذا الدين وأن المنهج الذي يصفانه لا يملكه إلا الاسلام من بين سائر المناهج والمذاهب والنظريات التي يعرفها بنو الانسان .

إذا كان صناع الحضارة الغربية والذين يتفياون ظلالها أشهروا إفلاسهم وقادوا البشرية إلى الضياع وإذا كنا - نحن المسلمون - نرى أن الإسلام هو المؤهل الوحيد لتسلم زمام قيادة البشرية فهل هناك من قادة الغرب وساسته ومفكره الذين تنبأوا بسقوط الحضارة الغربية من تنبأ بأهلية المسلمين للقيادة أو توقع لهم دورهما ؟

وربما كان من أهم ما يذكر في هذا المجال ما قاله العالم الروسي «تروجانوسكي» الذي كتب مجموعة مؤلفاته في أعقاب الثورة الشيوعية محاولا تقويمها ومتسائلا : متى وأين تأتي الثورة العالمية الثالثة ؟ مشيرا بهذا إلى الثورتين العالميتين الفرنسية والشيوعية ، وإلى فشلها في نواح متعددة وأن العالم في حاجة إلى ثورة قادمة تستطيع أن تصحح من مسارات الحركة الانسانية ويجيب «تروجانوسكي» بأن تلك الثورة لن تأت إلا من العالم الاسلامي وكان ذلك في عام ١٩١٩ م .

ولعل من أدق ما كتب وأكثره تصويرا لعناصر قوة الاسلام التي تمكنه من بناء قوة عالمية كتاب «الاسلام قوة الغد العالمية» لمؤلفه «باول شمتز» الذي استهدف تبصير بني جنسه بعناصر القوة في الاسلام وتحذيرهم منها ويقرر «باول شمتز» أن عناصر القوة الأساسية التي يمتلكها المسلمون أربعة : -

الأول :- الموقع الاستراتيجي الذي يحتله المسلمون في العالم وهو موقع مهم بشهادة شمتز وبشهادة كثيرين غيره . إن هذا الموقع يحتل مكانة فريدة ظلت على مدار التاريخ مطمعا لكثير من القادة والفاثحين وبناء الدول والامبراطوريات ولاريب أن الرغبة في التحكم في هذا الموقع الفريد كانت أحد الأسباب وراء الحرطة الصليبية والحركة الاستعمارية والهجمة الصهيونية الآن .

الثاني : - النمو البشري لدى المسلمين وهو نمو يدل على خصوبة كبيرة لدى المسلمين تجعل نسبة تزايدهم تتفوق كثيرا على نسبة تزايد سواهم يقوم شمتز «تشير ظاهرة نمو السكان في أقطار الشرق الاسلامي إلى احتمال وقوع هزة في ميزان القوى بين الشرق والغرب فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية» .

ومما يؤكد صحة توقعات (شمتز) في هذا الصدد التزايد الملحوظ في عدد سكان البلاد الاسلامية مع بقاء دول الغرب محافظة على نسبة سكانها يضاف إلى ذلك التباين في نوعية السكان حيث تزداد نسبة الشباب في المجتمع الاسلامي على العكس من المجتمع الغربي الذي تزداد فيه نسبة الشيوخ ولعل في ذلك إيماء لقوة الاسلام وترهل الغرب .

الثالث : - الثروات والمواد الخام في بلاد المسلمين وهي ثروات كبيرة يستطيع بها المسلمون بناء قوة صناعية تضارع أرقى الصناعات العالمية - إن لم تفقها - وسوف تزداد هذه الثروات في وقت تقل فيه ثروات البلاد الأخرى .

الرابع : - الاسلام وهو أهم عناصر القوة في المجتمع الاسلامي وأخطرها ، يقول شمتز في حديثه عن الاسلام : «ذلك الدين الذي له قوة سحرية على جميع الأجناس البشرية المختلفة تحت راية الوحدة بعد إزالة الشعور بالتفرقة العنصرية من نفوسهم وله من الطاقة الروحية ما يدفع المؤمن به إلى الدفاع عن أرضه وثرواته بكل ما يملك مسترخيا في سبيل ذلك كل شئ حتى روحه أي قوة وحدانية بعثت هذه الارادة في العالم الاسلامي فوة الوحدة الفكرية للاسلام ووجود الاحساس الحي للدين الاسلامي فهو ينتصر في كل مكان ينزل فيه الميدان مع الأيديولوجيات الأخرى . إن اتجاه المسلمين نحو مكة موطن الاسلام عامل من أهم العوامل في تقوية وحدة الاتجاه الداخلي بين المسلمين وأسلوب يضفي على جميع نظم الحياة في المجتمع الاسلامي طابع الوحدة وصفة التماسك» .

ويستخلص المؤلف من ضعف الغرب في تمزقه السياسي وقوة المسلمين في تمسكهم بالاسلام عودة المسلمين إلى القوة إن هم أحسنوا استثمار مواردهم الطبيعية وموقعهم الجغرافي في العالم وإن هم تعلموا التكنولوجيا كما تعلمها الأوروبيون فيقول : «وسيعيد التاريخ نفسه مبتدئا من الشرق الاسلامي عودا على بدء من المنطقة التي قامت فيها القوة الاسلامية العالمية في الصدر الأول للاسلام وستظهر هذه القوة التي تكمن في تماسك الاسلام ووحدته العسكرية وستثبت هذه القوة وجودها إذا ما أدرك المسلمون كيفية استخراجها والعمل على الافادة منها وستقلب موازين القوى لأنها قائمة على أسس لا تتوفر في غيرها من تيارات القوى العالمية وقد أدرك الكاتب الانجليزي (هيلر بلوك) مدى فاعلية هذه القوة حين أكد أنه لا يساوره أدنى شك في أن حضارة ترتبط أجزاءها برباط

متين وتماسك أطرافها تماسكا قويا وتحمل في طياتها عقيدة مثل الاسلام
لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب بل ستكون أيضا خطرا على أعدائه» .

ينذر شمتز أوربا محذرا من خطر القوة النامية الجديدة في الشعوب
الاسلامية وداعيا إلى العمل بحزم لرد خطر هذه القوة ووقف نموها وتزايدها
كي تبقى نذير لأوربا وهتاف يجوب آفاقها يدعو إلى التجمع والتساند الأوربي
لمواجهة هذا العملاق الذي بدأ يصحو ويزيل النوم عن عينيه .

ثم ينصح الأوربيين بأن يقفوا بالمرصاد لنمو عوامل القوة بين المسلمين
بطريق أو بآخر إن هم أرادوا الحفاظ على وضعهم الدولي في السياسة والاقتصاد
وليس أمامهم إلا أن يتكتلوا تحت شعار (الوحدة الأوربية) .

ويرى أنه يمكن للمسلمين أن يتقدموا في العلم والتكنولوجيا كما تقدم
الأوربيون وهم عندئذ ليسوا في حاجة إلى رباط يجمع شملهم سوى الاسلام وهو
قائم فعلا لم يفقدوه بعد .

وكتاب شمتز يمكن أن يكون دعوة إلى المسلمين ليزدادوا إيمانا بالاسلام
بالتمسك به إبقاء على وجودهم واحتفاظا باستقلالهم السياسي والاقتصادي
وتشوقا إلى المركز القيادي الذي يؤهلهم له الاسلام لأن قوة القرآن الكريم في
جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن ولم تنجح الأحداث التي مرت على
المسلمين في القرون الأخيرة في زعزعة ثقتهم به كقوة روحية إيجابية (١) .

وليس بأول شمتز وحده الذي حذر الغرب من يقظة المسلمين وحرص على
التصدي للخطر الداهم الذي يهدد الغرب فهناك لجنة دولية تألفت بأمر (السير
هنرى كامبل بانرمان) أحد رؤساء الوزارة البريطانية السابقين درست الوسائل
المستطاعة لحماية الاستعمار الغربي وتوفير ضمانات البقاء له وكان الجزء المهم
في تقرير اللجنة الذي صدر عام ١٩٠٧م يقرر أن الخطر الأكبر على الاستعمار
يكمن في منطقة الشرق الأوسط يفهذه المنطقة مهد الحضارات والديانات
ويسكنها شعب تتوفر له من وحدة تاريخه ولغته ومثله وآماله وثرواته الطبيعية
ونزعة أهله إلى التحرر ما يجعله مؤهلا للنهوض من جديد وانتزاع قيادة
الحضارة البشرية ولا جدال في أن القوة التي أفزعت لجنة (بانرمان) هي قوة
الاسلام وأن الشعب الذي تتوفر له وحدة اللغة والتاريخ والمثل والآمال هو
الشعب المسلم والديانة التي يدين بها هذا الشعب هي الاسلام .

(١) بادل شمتز ، الاسلام قوة الغد العالمية ترجمة : الدكتور محمد شامة ، القاهرة مكتبة وهبة ١٩٧٢م .

أما كيفية مواجهة الخطر الذي يهدد المصالح الاستعمارية فكان من بين عناصرها فصل الجزء الأفريقي من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوي بإقامة حاجز بشري قوى وغريب ، يملا الجسر البري الواصل بين القارتين بحيث يشكل في هذه المنطقة وقريبا من برزخ السويس قوة صديقة للاستعمار الأوربي ومعادية لأهل البلاد وقد حرص الغرب على تحقيق هذا الاقتراح بكل قوة حيث غرس قوة صديقة للاستعمار الأوربي ومعادية لأهل البلاد وهي (اسرائيل) .

ويلجأ بعض ساسة الغرب أحيانا إلى دعم الاتجاهات التي يعادونها إذا كان في دعمها ما يضعف من قوة المسلمين أو يعرقل انبعاثهم الحضاري . يقول (إيدن) رئيس الوزراء البريطاني الأسبق في مذكراته : «إن أمريكا في الخمسينات راحت تنفق أموالها على نطاق مسرف لإعانة الشيوعية في الشرق الأوسط وكان غرض أمريكا من نشاطها السياسي والثقافي والعلمي في هذه المنطقة هو تميميع المبادئ والعقائد الروحية والدينية التي يؤمن بها سكان المنطقة» (١) .

(١) من مقال للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي بعنوان (الغد للإسلام) في مجلة منار الإسلام عدد جمادى الآخرة ١٣٩٧هـ والدكتور خفاجي يحيل في هوامش مقاله هذه الفقرة من كلام إيدن إلى الصفحة ٣٤٣ من الطبعة الانجليزية من مذكراته .

أما الزعيم الكوبي الشيوعي (كاسترو) فإنه ينصح (اسرائيل) ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعا اسلاميا دينيا لأن ذلك يجعل منها شعلة من نار الحماس الديني مما يجعل من المستحيل على اسرائيل أن تصون كيانها معه لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية وبخاصة في المجتمعات الاسلامية تلاشت أمامه كل العقائد الأخرى بما فيها الماركسية . (١)

(١) المصدر السابق

تلك هي صيحات الانذار التي تنطلق من أبناء الحضارة الغربية تعلن إفلاس حضارتهم وتحذر في الوقت نفسه من الاسلام ذلك العملاق الذي يفرزعهم إن استيقظ .

لقد أصبح التآكل في حضارة الغرب داء عضالا مزمننا ينخر كل يوم في هيكلها الضخم فيقربه من مصيره المحتوم وهو الانهيار الكامل ليفسح المجال أمام دورة جديدة لحضارة جديدة لعلها تنقذ البشرية وتضعها على منهج قويم للحياة .

وفكرة (دورة الحضارة) فكرة قال بها كثير من المفكرين منذ القدم ولا تزال تجد من يؤمن بها ويجمع لها الشواهد والأدلة و خلاصة ما تقرره هذه لفكرة أن لكل حضارة عمرا قد يطول وقد يقصر لكن الانهيار هو المصير النهائي لها حيث لا بد أن تموت لتخلي مكانها لحضارة جديدة وقد شبه العلامة (ابن خلدون) الدول بالأفراد من حيث النشأة فالشباب فالشيخوخة فالوفاة .

وقد سبقت الإشارة إلى ما قاله (فولني) معبرا عن أساء عما سوف يحل بحضارة ذويه من انهيار كما حل بالحضارات القديمة البائدة .

وهذا السير (هنري كامبل بانرمان) رئيس الوزارة البريطانية الذي ترأس اللجنة الدولية التي سبقت الإشارة إليها يقول : « إن الامراطوريات تتكون وتنمو وتقوى ثم تستقر حينما من الدهر ثم تبدأ طريقها إلى الغروب رويدا رويدا ثم تتلاشى والتاريخ ملئ بهذه الأطوار والأدوار التي انطبقت على شتى الأمم والنهضات دون استثناء» . ثم يسأل أعضاء اللجنة قائلا : « فهل لديكم أسباب ووسائل تجنبنا هذا المصير ؟ لقد أصبحت أوروبا قادة قديمة استنفدت مواردها وحالت معالمها بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية» .

أما (توينبي) المؤرخ البريطاني الشهير فإنه يضع القوانين المعقدة لنمو الحضارات ولانحلالها الحتمي بعد ذلك ويقرر أن الحضارات تسقط في الوقت الذي يكون فيه قوة الانسان أشد من قوة الدين .

ولقد أدركت الأمم المتحدة فداحة المصير الذي تمضي البشرية إليه فدعت إلى عقد جلسات استثنائية في عامي ١٩٧٤م و١٩٧٥م تقرر في نهايتها بالاجماع بعد حوار طويل أن السبب الأول للانحراف هو عدم صلاحية الأنظمة التي تسيطر على العالم اليوم وأنه لا بد لانقاذ البشرية من إقامة نظام عالمي جديد يضمن للإنسانية حقها الأصيل في حياة حرة آمنة .

وإذن فإن الدورة الحضارية لا بد أن تأتي على الحضارة الغربية كما أتت على الحضارات السابقة وما يحاوله بعضهم من استثنائها من هذا المصير بدعوى أنها حضارة عالمية الأبعاد مما يجعلها خالدة مستمرة لن ينقذها من مصيرها ذلك أن التاريخ شهد أكثر من حضارة عالمية الأبعاد ومع ذلك انهارت في النهاية .

ورب قائل يقول : إذا كانت حتمية اندثار الحضارات قدرا لا مفر منه
وحقيقة لا يمكن انكارها فلا عاصم للحضارة الاسلامية - إذا اعتلت القيادة - من
السقوط ثانية ونحن المسلمين نفهم تلك الحتمية وهذه الحقيقة من خلال إيمان
لا يرقى إليه الشك في صدق الآية الكريمة « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر
أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » فإذا فقد المسلمون جدارتهم بقيادة ركب
الحضارة فإنها تصير إلى غيرهم ذلك أن الله عز وجل في الكون سننا ونواميس
لاتحابي أحدا ولا تجاهل مخلوقا .

(٧) الأزمة الفكرية والمأزق الحضاري للأمة الإسلامية : -

كما أشرنا آنفا فإن مفهوم المأزق الحضاري يجب ألا نقصره على حضارة الغرب وحدها بل إن وصف حال الأمة في الواقع المعاصر أولى بهذا الوصف (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ..) بل إنه من المستحسن بل ومن مقتضيات النظر المنهجي أن نولي اهتماما خاصا إلى تتبع حقيقة هذا المأزق الحضاري من الناحية التاريخية وليس من همنا أن نتهم عصر معين بأنه كان سببا في المأزق الحضاري وتراكم مظاهره ولكن المقصود ونحن نتحدث عن المسلمين وشهودهم الحضاري أن نعي حوادث التاريخ بما يفرضه من عبرة واعتبار باعتبار ذلك هدف منهجي أساسي من النظر في التاريخ هذا من جانب ، ومن جانب آخر إن تلك محاولة لتفسير عملية طول الأمد وأثرها في قسوة القلوب والبعد عن مسيرة الاستخلاف الحضارية ونسيان الأمانة وتضييعها « .. إنه كان ظلوما جهولا» ظالم مع قدرته أن يعدل ويلتزم ، وجاهل مع أهليته للعلم والفقہ والوعي والتدبر والتفكر والتعقل .

فمن آفات الانسان في مسيرته الحضارية غياب الوعي وغفلة عن الصراط الحضاري . «أفمن كان مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم» . إن طول الأمد يتطلب من الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة الإسلامية حال التذكر وحال الابتلاء الذي يجعل الانسان في اختبار دائم ووعي وفتنة وقدرة على مواجهة أي نوع من الانحراف الحضاري مهما كان يسيرا فتاريخ الأمة يعلمنا حقيقة الفتنة لطول الأمد حتى لا تقسى القلوب فتستمر في الفساد ويشيع المنكر وينزوي المعروف وتفقد الأمة جوهر وظيفتها في الشهود وحقيقة خبرتها في الوجود .

أولا : نقض الوعي : -

تأسيسا على هذه المقدمات الأساسية فإن من خير ما يفسر حقيقة تاريخ المسلمين هو حديث النبي (عليه الصلاة والسلام) حول «نقض (١) عرى الاسلام عروة عروة» قاله النبي (ص) تحذيرا لأمته ومطالبها إياها بالوعي والفتنة لطول الأمد .

(١) والنقض انتشار العُقد من البناء والحبل والعقد وهو ضد الابرام يقال نقضت البناء والحبل والعقد .. ومن نقض الحبل والعقد استعير نقض العهد قال (الذين ينقضون عهدهم - الذين ينقضون عهد الله) .

روى الامام أحمد في مسنده «لتنقض عرى الاسلام عروة عروة أو لا نقضا للحكم وآخرها نقضا للصلاة» .

انظر : الملتقى المندي ، كنز العمال ، مرجع سابق ، ط ص ٢٣٨ .

وقد قدم الأستاذ ابراهيم بن الوزير معالجة قيمة لحديث نقض الوعي في كتابه : على مشارف القرن الخامس عشر الهجري ، دار الشروق : بيروت - القاهرة ، ط ٣ ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م ، ص ٥١ - ٥٤ .
انظر أيضا محاولة للجمع بين الأحاديث المتشابهة مع هذا الحديث والقواعد الأساسية لفهمها : - سيف الدين عبد الفتاح ، التجديد السياسي والخبرة الاسلامية .. مرجع سابق ، ص ٣٨٧ وما بعدها .

والجاحظ يحدد بداية الوهن في الأمة بمقتل عثمان بن عفان الخليفة الراشد الثالث رضي الله عنه (١) وربما يكون محقا في ذلك فإن عدوة الحكم لم تنقض مرة واحدة ولكن توالى الحوادث التي أدت إلى انفكك هذه الصخرة .
ومن ثم شكل انحراف واعوجاج منهج السلطة السياسية من ناحية واضطراب النظر إليها من ناحية أخرى خاصة في أسس وشروط تلك العلاقة السياسية بين الراعي والرعية .

(١) يقول الجاحظ في رسالته في بني أمية : «...أن هذه الأمة قد صارت بعد اسلامها والخروج من جاهليتها إلى طبقات متفاوتة ومنازل مختلفة» . فالطبقة الأولى عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وست سنين من خلافة عثمان رضي الله عنه كانوا على التوحيد الصحيح والاخلاص المحض مع الالفة واجتماع الكلمة على الكتاب والسنة وليس هناك عمل قبيح ولا بدعة فاشية ولا نزع يد من طاعة ولا حسد ولا غل ولا تأول حتى كان الذي كان من قتل عثمان رضي الله عنه وما انتهك منه ومن خبطهم إياه بالسلاح .. مع تعريفه لهم قبل ذلك من كم وجه يجوز قتل من شهد الشهادة وصلى القبلة وأكل الذبيحة مع احتجاجه عليهم وإفحامه لهم ومع اجتماعهم على أنه دم الفاسق حرام كدم المومن إلا من ارتد بعد إسلام أو زنى بعد إحصان أو قتل مؤمنا على عمد أو رجل عدا على الناس بسيفه ثم مع ذلك كله ، أمروا عليه وعلى أزواجه وحرمة؟ وهو جالس في محرابه ومصحفه يلوح في حجره لا يرى أن لو أحدا يقدم على قتل من كان في مثل صفته وحاله .. وقد كان لهم في أخذه وفي إقامته للناس والاختصاص منه وفي بيع ما ظهر من رباعه وحدائقه وسائر أمواله وفي حبسه بما بقي عليه وفي طمره حتى لا يحس بذكره ما يغنيهم عن قتله إن كان قد ركب كل ما قذفوه به وادعوه عليه وهذا كله بحضرة جلة المهاجرين والسلف المقدمين والأنصار التابعين ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ذلك الاضطراب والضباب الذي أصاب النظر في رؤية السلطة هل هي بالنص أم بالاختيار وقد أدى هذا بدوره إلى تعامل فكري خاطئ مع السلطة الشرعية .

ومراتب متباينة فمن قاتل ومن شاد على عضده ومن خاذل عن نصرته والعاقة ناصر بإرادته ومضيع بحسن نيته . وإنما الشك فيه وفي خاذليه ومن أراد عزله والاستبدال به فأما قاتله والمعين على دمه والمريد لذلك منه فضلال لاشك فيهم ومراق لا امتراء حكمهم على أن هذا لا يعد منهم الفجور ما على سوء تأويل أما على تعدد للشقاء ثم مازالت الفتن متصلة والحروب مترادفة كحرب الجمل وكوقائع صفين وكيوم النهروان وقبل ذلك يوم الزابوقة إلى أن قتل أشقاها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فأسعده الله بالشهادة وأوجب لقاته النار واللعنة إلى أن كان من اعتزال الحسن رضي الله عنه الحرب وتخليقه الأمور عند انتشار أصحابه وما رأى من الخلل في عسكره وما عرف من اختلافهم على أبيه وكثرة تلونهم عليه فعندها استولى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه «عام الجماعة» وما كان عام جماعة بل كان عام فرقة وقهر وغلبة والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكا كسرديا والخلافة منصبا قيصريا ..»

انظر في هذا : الجاحظ «من رسالته في بني أمية» ضمن رسائل الجاحظ جمعها ونشرها حسن السندوبي ، القاهرة :

بين هؤلاء العلماء على اختلاف مذاهبهم وتغري بعضهم ببعض بل وبدأت تعقد المناظرات الفقهية كذلك . وتطرق هؤلاء إلى قضايا لم يكن لهم وفق أصول المنهجية الاسلامية الواضحة التعرض لها وسُتتوا منها تفريعات صار يمارس بصدها الجدل للجدال ومراء أورث فرقة وعصبية مذهبية وفكرية .

والأمر لا يختلف كثيرا بصدد علم الفقه فقد أصابه سابقة ونشأت العلوم الفقهية وقامت محاولات تدوينها في منتصف القرن الثاني الهجري لا لتكون شريعة مع شريعة الله بل لتكون علاجا لمشكلات العصر وقضاياها وفقا لفقه وفهم أئمة تلك العصور دون تفكير ومحاولة تنظيم وتقنين أحكام الشريعة والتعامل مع مختلف الحوادث المتجددة والنوازل المستمرة وذلك كله بصدد تيسير التعامل معها من جانب والحفاظ على ارتباط الواقع المعاش بأصول الشريعة وحقائق مقاصدها فإذا به يتحول إلى قيد وبفعل المتعاملين معه لا بحكم بنائه وموضوعاته وبفعل عقلية التقليد التي تراكمت مظاهرها وتغلغلت عواملا في عقلية نفسية الأمة حتى أصبحت تستنكف الخروج عليها وتركن إليها قيد يمنع العقل المسلم ويحد حركة ويجعلها مراوحة في المكان أو داخل أ؟ فقهية لا يخرج عنها وحتى تحول مجمل النظر في الأمور والقضايا الاسلامية الأساسية إلى شكلية يكفي فيها مجرد المظهر القانوني أو بعبارة أدق الفقهي حتى لو فقدت جوهرها وروحها . ولا شك أن رؤية هذه الأمور متكاملة سواء ما نشأ منها في الجانب السياسي أو الجانب العلمي قد أفرز أزمة جديدة : - هي الفصام بين النظرية والتطبيق وأصبحت سمة من سمات حركة الأمة بعد انفكاك أهم توثيق قاعدتها وحيويتها ووحدتها .

آنذاك أعقبه أخطاء في الحركة وتعامل آخر متهاون أدى إلى أن تصبح السلطة ملكا عضوا وكان ذلك أول الوهن وبدايات الاعوجاج الحضاري لافقط لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال ذلك «لتنقضن عرى الاسلام عروة عروة أولها الحكم وآخرها الصلاة» ولكن لأن الحكم فعلا وواقعا بعد زمام الأمر وملاكه .

وواقع الأمر أن البعض قد يرى في هذه الأزمة في أصولها أزمة سياسية إلا أن النظر العميق يجعل من تلك أعراض للأزمة بينما يستطيع أن يشير إلى أن عواملها بالأساس تكمن في أزمة أصابت التفكير السياسي حيال ظاهرة السلطة والتعامل معها : -

أولها : - هؤلاء الذين قتلوا عثمان رضي الله عنه دون أدنى تدبر لحقيقة التفاعل بين الواجبات والحقوق من قبل الراعي والرعية ويتكبت أمر السلطة بكونها شرعية وغير شرعية وتخير الوسائل الكفيلة بمواجهة الأزمة الحادثة وفق قواعد أساسية بدء المفسدة وجلب المصلحة .

ثانيها : - تنازع السلطة الذي أدى إلى فرقة الأمة واقتتالها مما جعل كثير من القيم الإسلامية بعد أن كانت في قمة سلم الأولويات اعتقادا وممارسة إذ بها تنزل إلى مرتبة دنيا منه مما أصاب حقيقة النظر إلى قضايا مثل «الأخوة - الجماعة - الطاعة - عدم توليه الإمارة للحريص عليها ..» وهو أمر جعل من عصر الخليفة الرابع الراشد (علي بن أبي طالب) يأخذ شكل الاقتتال المستمر .

ثالثها : - تحول السلطة إلى ؟وكشأن كل تعامل مع معظم قضايا حركة المسلمين فإنها في سبيل البحث عن حل لقضية الفرقة والتنازع على السلطة والاقتتال اختارت حلا اعتقدت أنه يحقق ذلك المقصد ولكنه كان على حساب مقصد آخر وهو «الاختيار والرضا» باعتباره جزهر عقد السلطة والولاية على المسلمين فصار هذا الحل جزءا من الأزمة بعد حين بينما ظلت أزمة الفرقة تتراكم في عزاملها تتنوع في مظاهرها لتتخذ أشكالا أخرى مثل (الجدل الكلامي بين القرن - الحركات الشعبية - حركات الزندقة ..) كل تلك الأمور مؤرس بصددها تفكير خاطئ سواء في مفهوم السلطة في حد ذاته وطبيعتها وحقيقة وظائفها وطرق حسابها ورقابتها ومواجهة انحرافها وسبل التحقق من ذلك .

واستمر بعض الفقهاء - إن لم يكن معظمهم - رغم حرمهم على الأصول الثابتة للنظرية الفقهية الدستورية الإسلامية في الحكم وتضمينها كتبهم إلا أنهم ونتيجة للفكر المأزوم تهاوفوا في أمور أخرى مثلما تهاونوا في بداية أمرهم وكان أول الوهن وتحت ضغوط واقعهم ونبل مقصدهم في جمع كلمة الأمة وبلوغا لقصده وحدتها ودرء للفتنة على حد بعيد هم إلا أنهم من حيث لا يشعرون صارت تلك الاجتهادات الفكرية مدخلا للفرقة بين الأمة وفتح باب الفتنة من أوسع طريق .

وظلت كثير من هذه الكتابات تعالج قضية الطاعة للإمام علي نحو يجعلها تتصادم مع أصل أصيل وهو حقيقة الشرعية .

وغاية الأمر أنه يمكننا القول أنه إذا كانت الخلافة في مجملها شورى وبيعة وفي جوهرها رضا واختيار فإن ارتباط الملك بالجبرية كان أمرا متزامنا أضاف لأزمة السلطة والنظر إليها والقواعد التي تحكم التعامل معها أبعادا جديدة أهمها حقيقة الفصام بين الخلافة ودور العلماء فكان هذا مدخلا آخر لتكريس عقيدة الجبرية وما ترتب على ذلك من غبش أصاب النظر إلى قضيتي الاختيار الانساني وحدوده وقضية الفعل الانساني ومدى المسؤولية عنه (١) هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان هذا مدخلا لانفكاك عروة العلماء (٢) وحقيقة دورهم في الأمة ووظيفتهم الحضارية والجهادية .

(١) انظر في ذلك أثر الجبرية في التفكير والحركة : - الجاحظ ، المرجع السابق ، ص ٢٩٧ وما بعدها .
الحسن البصري ، رسالة في القدر ضمن : - رسائل أهل العدل والتوحيد ، جمع وتحقيق : د. محمد عمارة ، القاهرة دار الهلال ، ١٩٧١ . ص ١٠٠ ، ص ٨٢ وما بعدها .

(٢) من نافلة القول هنا أن نحدد الطريقة التي نفهم به العروة ونقضها وأهم معالم هذه الطريقة ما يلي :-
أ) أن العروة وانفكاك عراها وتحديد مدى زمني تقريبي لذلك أي لأول نقضها لا يعني بأي حال أن نقضها التام قد تم على مراحل متعددة ومتراكمة أدت إلى تفاقم الأزمة والنقض شبه الكامل للعروة .
ب) أن الزمن الواحد لا يختص بنقض عروة واحدة دون سواها ولكن ربما يبدأ فيه نقض أكثر من عروة للطبيعة المتداخلة بين عرى الاسلام وتماسكها وارتباطها ترابط الحلقات مع بعضها البعض . ومن ثم لا يمكن اتخاذ تلك التحديدات الزمنية بصورة حاسمة أو قاطعة فإنها نقطة ماضية منفصلة ومنعزلة عن الزمن الحاضر ولكن يمكن رؤية نقض عروة الحكم في تطورهما إلى الزمن الحاضر وتراكمها وفق مسار معين ومتداخل مع العرى الأخرى التي ترتبط بها لزوما وتلازما .

ج) أن فهم فكرة انفكاك عرى الاسلام عروة عروة يجب ألا ينزلق إلى محاولة تفسير تاريخ المسلمين بأنه وفق هذا الحديث وما شابهه يؤمن بحتمية النكوص والتدهور لحضارة المسلمين وهذا من جملة التفكير الخاطئ الموروث من قبل كثير من المستشرقين أو من تاريخهم في ذلك التفسير . ورفض هذا الفهم يستند إلى أن هذه الأحاديث قد تم بصورة قاصرة يعود ذلك إما للجهل بضوابط علم الأصول لفهم السنة في ذلك المقام أو الجهل بالأدوات لتفسيرها . انظر في تفاصيل نقد هذا التوجه :-

سيف الدين عبد الفتاح ، التجديد السياسي والخبرة الاسلامية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة : كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٨٧ ، ص ٣٨٧ - ٣٩٥ . انظر في هذا التوجه الذي يؤكد على نظرة الاسلام إلى تاريخ المسلمين بأنه يسير إلى نكوص :-

.....؟ حضارة الاسلام ترجمة : عبد العزيز توفيق جاويز ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة : مكتبة مصر ، ١٩٥٦ م ، ص ٣٠٥ . د. معن زيادة «بعض إشكاليات المنطق الداخلي للفكر العربي الاسلامي» قضايا عربية بغداد : العدد الثالث ، السنة (٧) ، مارس ١٩٨٠ ، ص ٧١ - ٧٢ .

قارن هذه الرؤية برؤية مخالفة :- د. اسماعيل راجي الفاروقي «النهضة الاسلامية في المجتمع المعاصر» ، مجلة المسلم المعاصر بيروت : العدد (٢٨) أكتوبر - ديسمبر ١٩٨١ م ، ص ٧٧ وما بعدها .

فإذا كانت العروة الأولى التي أصابها الوهن والنقض هي «الحكم» والتي تشير إلى منهجية خاطئة في النظر إليه والتفكير به والغفلة عن قواعد النهج الأول للخلافة الراشدة فإن عروة العلماء ونقضها كانا في قلب عملية الفكر ، ذلك أن العلماء في حقيقتهم أهم القواعد للانتاج الفكري وهم وفق دور مخصوص حماة القيم التي تحكمه والمقاصد التي يتفياها وإحكام المنظومة الفكرية من شأنهم ومتابعة مناهج الفكر وإصلاحها أولى مهمهم وانشبت تلك الأزمة الفكرية إلى كافة فروع العلم والمعرفة وتزالي نقض هذه العروة وبدأ هؤلاء يقترحون الحل تلو الحل لتلك الأزمات وفروعها ، إن أن هذه المحاولات التي بدت في أول أمرها لا للإصلاح إذا بها تنقلب إلى داء عضال لأنها لم تتبين حقيقة كلية الأزمة الفكرية وشمولها وتشابك عناصرها علم الكلام الذي وضعه علماء المسلمين ليكون وسيلتهم للدفاع عن عقائدهم بعد أن بدأت مهاجمة هذه العقائد للإسلام من خلال أناس تسلحوا بالفكر اليوناني ومنطقه وعلوم الأوائل ولعبت حركة الترجمة في هذا الواقع دورا وكان لا بد من الجدل وإجادته والذي اتخذ أشكالا مختلفة حتى أنه في بعض الأحيان كان ينتدب علماء إلى بلدان أخرى لمجادلة حكام وعلماء تلك البلدان مثل أبو بكر الباقلاني وفجأة ودون سابق إنذار تحول هذا العلم من سلاح دعوى للمسلمين في مواجهة غيرهم وللتأثير على من سواهم ودفع شبههم ورد خصومهم أصبح أداة للاقتتال وتغذية عوامل الفتنة الداخلية والفرقة الفكرية والتعصب للمذاهب الكلامية وإذا بهؤلاء يستخدمون هذه العدد ذاتها والسلاح ذاته وبتشجيع من السلطة التي كانت في البداية - تعقد المناظرات هذه الأزمة أقلقت البعض من العلماء الذين رأوا في تجميع وإبراز التراث الإسلامي الفقر في قضايا التربية الروحية أمرا مهما وأفرز هذا الاهتمام آنذاك مادة علمية سميت «بالتصوف» وذلك في محاولة منهم لإعادة الاتساق بين النظرية والتطبيق وتوثيق صلوات رحم بينهما وفي محاولة منهم في طرحهم التربوي هذا مجاوزة للإطار الفقهي الضيق الذي نمت النظرية الشكلية والتعامل الجامد وأنتج بابا أسماء الحيل الشرعية كل ذلك على حساب «مفهوم المقاصد» هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أرادوا بذلك سد الثغرة بين النظرية والتطبيق بملاحظة واعتبار المقاصد ، والآثار السلوكية المرتبطة بها وربط كل أمر بمقصده (الأمور بمقاصدها) (حكم الوسائل حكم المقاصد) فما لا يحقق مقاصده فلا خير فيه وأن الالتزام الشكلي بالإطار القانوني وإن ظل صحيحا في مظهره إلا أنه كان قاصرا في جوهره لا يمكنه أن يحقق الهدف والمقصود .

وإذا بهذا العلم شأنه شأن من سبقه من علوم افترض كحل لأزمة الأمة أو

بعض منها فإذا بالأزمة الفكرية ذاتها تنعكس على هذا العلم نفسه فيتحول من معالجة القضية الفكرية الأساسية وإزالة الفصام بين النظرية والتطبيق إلى جزء من الأزمة لاجزاء من الحل وأصبح التصوف في حد ذاته مقصداً أو هدفاً وضعت له قواعد وتدرجات جعلته جزءاً من أزمة جديدة بل ويُرَاكم على الأزمة في التفكير الإسلامي أبعاد أخرى منها الانصراف عن حوادث الحياة وعدم الاهتمام بها وتجييز حال العزلة عن المجتمع ومشاكله وقضاياها بدعوى عدم الانغماس في دنيا الناس ومطالبهم الينية وهو ما خلق قطاعاً كبيراً من الأمة مشلول الطاقة محدود الفاعلية فضلاً عن اتهام هذا التوجه عندما أصابه الجمود ثم التحول لكل نشاط وفعل وفاعلية بالانغماس في أمور الدنيا وترك أمور الآخرة وتناس القاعدة الأساسية بأن الدنيا مزرعة الآخرة ومجال للعمل تمهيداً لدار الجزاء والحساب ومجال الفعل والفاعلية وحمل الأمانة وتبليغ الرسالة ومسيرة الاستخلاف ومجال العمران والشهود الحضاري ومن هنا مثلت العقيدة الجبرية التي برزت في كافة الأنشطة ومنها النشاط السياسي وكذلك تجاهل العلماء وفقدانهم جوهر وظيفتهم الحضارية والكفاحية وتحول علوم الحل إلى جزء من الأزمة والاضافة إليها أبعاداً جديدة من الجدل الكلامي بين فضائل الأمة وجمود الفقهاء وتجميد الفقه والتصوف وعزلة الدنيا وكذا قضايا الأمة كل ذلك مثل خطوات على طريق نقض عروة الفكر ووظيفته في حياة الأمة وحركتها الحضارية .

وكان كل انحراف يجابه في النهاية لا بمواجهة الانحراف في ذاته ونقص أسبابه وعوامله والتعامل مع مظاهره المتشابكة وإمكانية مواجهته بل اتخذت المجابهة طريقاً آخر يتبنى سد الباب أمام أي حركة فكرية منحرفة كانت أو صحيحة ومن هنا برزت الدعوى لإغلاق باب الاجتهاد لتتوج مع سيادة نفسية التقليد وروح القطيع وعقلية العوام ونقض عروة الفكر وتعطى الغطاء والمسوغ لثقافة أزمة فكرية رسخت قواعدها وأصبحت جزءاً من حياة الأمة وتعاملها مع الأزمة لا بمحاولة الإصلاح والتفكير بحلها وآليات ذلك الحل ولكن بإضافة أبعاد جديدة للأزمة وتأزيم الحلول بشكل كرس علة الأمة التي تأكدت في أزمتها الفكرية ومنهج وتفكيرها حيال كل قضايا الأمة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو بالجملة حضارية .

وبعبارة أخرى فقد توجهت نقض عروة التفكير بما أسمى «إغلاق باب الاجتهاد» إذ لم يميز أصحاب هذه الدعوى ونتيجة لتراكم أزمة الفكر ومنهج التفكير ، بين فكر اجتهادي سليم منضبط بالأصول الشرعية وشروط الاجتهاد والأهلية له فكر يمثل الضرورة لحياة الأمة واستمرارها وتحقيق شهودها وبين آخر فكر فاسد قاتل ميت يتسرب من الباب المفتوح وتحت اسم الاجتهاد أيضاً

فكر يفسد على الأمة فكرها ويقتل فيها فاعليتها ويشل مراكز ومفاصل جسدها وبنيانها فأغلقت باب الاجتهاد (فداوني بالتالي كانت هي الداء) كما ادعت اعتقادا منها أن هذا يشكل الحل لأزمة الأمة وفرقتها واختلافها لمواجهة الأفكار الفاسدة التي ..؟ في عضد الآفة فحكمت على الفكر جميعه بالإعدام وعلى جهازها الفكري بالشلل دون أدنى تفكير في الترتيبات على هذا الأمر وتلك الدعوى فشكل كل ذلك بينة موازية لفعل عناصر مضادة وبطرق مختلفة تارة بالترجمة المؤقتة لكتب بعينها وتارة بتيارات ؟ وتارة ثالثة بتيارات شعبية نهضت من مرقدتها .

ودعوى إغلاق باب الاجتهاد ، دعوى لاتجد لها سند من شرع فليس لأحد أن يسد بابا فتحه الله ولكن بشرط أن يمارس ويدخل منه من هو أهل له متمكن من أدواته ووسائله متحققا فيه الشروط والأهلية لذلك فأثر ذلك على العملية الاجتهادية ؟ والتي تحولت - إن مورست شكليا إلى عملية تقليد في مضمونها وجوهرها .

وبرز هؤلاء الذين اعتذروا بإغلاق باب الاجتهاد لضرورة أو عملا بسد الذرائع فكان احتجاجهم أقبح من ذنبهم فليس كل من يدعي الضرورة يسلم له بذلك وإذا ما سلمنا لهؤلاء جدلا بالضرورة ألم تكن هناك ضرورة أخرى هي في مواجهة المشاكل المستجدة بالاجتهاد الواعي المستند إلى فقه الواقع فإن قبل أن درء الم..؟ مقدم على جلب المصلحة فهذا صحيح إذا ما تأكد هذا الوصف وإذا وصل التعارض بينهما لايمكن معه إلا التنازل عن الأخرى بل أكثر من ذلك فإن تنويت مصلحة « كالاكتفاء » يترتب عليه من المفساد ما ترجح به المفسدة الابتدائية وهي ترك قضايا الأمة المستحدثة دون البحث عن حكم ودون اجتهاد مما سيؤدي حتما إلى تنحية الشرع عن مسيرة الحياة والتزامها به وما أعظم مفسدة من ذلك وكان لهؤلاء مندوحة في البحث عن وسائل أخرى غير «إغلاق باب الاجتهاد» الذي أراد به أصحابه أن يوقفوا الفكر المنحرف فزداد لأن الفكر المنحرف لايجد له من تربة أصلح من نفسية التقليد واتباع كل شاذ وغريب وزخرف القول أما تربية الأمة على الوعي كان الكفيل بضبط العملية الاجتهادية بما رُبي فيهم من وعي يجعلهم قادرين على التمييز بين اجتهاد يصلح الأمة وهو يفسد أمورها .

وهنا برزت حقيقة أساسية أخرى تحكم عقدة الأزمة الفكرية وتنقض عروة الاجتهاد باعتبارها عملية حضارية شاملة فاستبدلت عقلية الاجتهاد المطلوبة بعقلية أخرى منافقية أساسها نفسية التقليد التي عششت في أركان الأمة

فجعلتها تستجيب لكل ناعق إذ عطلت عقلها ونحت جانبا وعيها . ولتشابك
نقض عرى الاسلام وتداخلها لا انفصالها وخطأ معالجتها كمفردات فإن الجبرية
في السلطة وانفكاك عروة العلماء والاختلاف الفكري حول قضايا لا تأثير لها
على حركة الأمة وإغلاق باب الاجتهاد كل ذلك أدى دوره في انفكاك عرى
وحدة الأمة ومؤد إلى اختلاف الأمة وتشردمها ليس فقط حول قضية الحكم
والخلافة بل تطرق الآن إلى قضايا تخص العقيدة وبرزت العلوم في بداية أمرها
خادمة لوحدة الأمة وبنيانها الحضاري فإذا بها تتحول إلى هادمة لتلك الوحدة
وتأسيس قواعد الأمة .

ذلك أن أزمة أصابت منهج التفكير بقضايا الآه جعلها تتراكم بلا حل فإن
اقترح لها الحل كان مصيره التأزيم أو توانت على فسار الأمر في بدايته ولم
تواجهه المواجهة المطلوبة بالمنهج المضبوط والوقت السليم فأضافت إلى فساد
الأمر فسادا .

فإن معظم قضايا الأزمة الفكرية لم تنشأ فجأة بل بدأت تدريجا وقدم لها
الحلول الخاطئة حيناً والحلول غير الملائمة حيناً آخر أو تركت القضايا حتى
تراكمت مظاهر فسادها فلم تجابه في الوقت المناسب .

بل إننا لا نبالغ إذا ما أكدنا أن بوادر فردية برزت تعلن عن مداخل لتلك
القضايا التي تشكل محتوى الأزمة الفكرية في عصر النبوة وعلى عهد الخلافة
الراشدة إلا أنها جوبهت آنذاك بالحلول الملائمة منها وتوقيتا ووسائل نقت
آنذاك في مهدها إلا أن محاولتها ظلت وحينما لم تجابه بالشكل والمنهج الملائم
وفي التوقيت المناسب وبوسائل فعالة تراكم فسادها أدى إلى احكام عقدة
الأزمة وانفكاك عرى الاسلام . فهذه الأفكار - على ما قلنا - برز لها أمثلة
ونماذج على عهد الصدر الأول كحوادث فردية قوبلت آنذاك بالحسم الواجب
حتى لا يستفحل أمرها ويتراكم شرها لأنهم آنذاك كانوا يملك الوعي الكامل
بطبيعة تلك العرى وأهميتها وأولويتها ودورها ووظيفتها في شد بنيان الاسلام
كمنهج حياة يتجسد في الزمان والمكان وفي فعل حضاري دائم ومتصل ومتجدد
. فليس هناك أكثر من آيات القرآن وكذلك أحاديث للنبي تنبه المسلمين
وتحذره من الفرقة وتحثهم على الالتزام بالجماعة فبينما كان الفعل الحضاري
والحركة الحضارية في الصدر الأول تعمل لذلك وتتفهم هذا وترجمه إلى واقع
عملي مثال ذلك من تجادل من المسلمين على عهد النبي في القدر ، أو
استنكاره لموقف عمر بن الخطاب حينما رآه يقرأ في توراة اليهود .. أو غير
ذلك من أمور بدت في حينها ولو تركت تلك الأمور دون موقف صلب وحاسم

تؤكد على وحدة الأمة بتنمية كل القضايا التي تؤدي إلى فرقة الأمة بالرد إلى الأصول الإسلامية الواضحة في القرآن والسنة والتأكيد على وحدة المصدر والقبلة وتنمية أي مصدر آخر كإطار مرجعي فيما عدا الوحي المنزل على النبي قرآنا كان أو سنة إنما كان يبحث في قاعدة وحدة الأمة .. وغير ذلك كثير يصعب حصره فيما لو تتبعنا كافة العرى التي انفكت أو نقضت .

ودولة الاسلام الأولى لم تكن تلك الدولة التي تعيش بلا قضايا أو مشاكل تبحث عن حل بل كان لها من الأعداء ، من المنافقين واليهود والنصارى ولكنها واجهتهم آنذاك بمنهجها المتميز وفق وسائل ملائمة وفي وقت مناسب وكانت المواجهة حاسمة بالتعرف على أساليبهم والوعي بها وتفويت كل الفرص عليهم .

أما أعداء الأمة الذين تربصوا بها منذ وقت مبكر ولوا بعض أمور المسلمين الهامة بل وشجع بعض منهم من الخلفاء لمتابعة مسيرتهم بدعوى حب العلم والثقافة بالإضافة إلى وجود بيئة خصبة من الاختلاف الفكري وشيوع نفسي؟ التقليد هيأت المجال لحركة ترجمة ارتبطت بحركة ..؟ ونهياً المناخ لحركة مجسدة تتبنى النداءات الشعبوية فكانت تلك عروة أخرى انسحبت وانفكت لتنقض عروة وحدة الأمة وتجعل الاختلاف القاعدة والاتفاق والرضا والشورى لإجماع المسلمين على أمر واحد هو الاستثناء .

وتتابع انفكك العرى واحدة بعد أخرى وتشابكت وتفرع نقض الوعي إلى عرى أخرى وبدا المسلمون لا يمارسون من إسلامهم إلا الصلاة يؤدونها شكلا ولا يقيمونها فعلا .

ونقضت مجموعة من العرى على عهد الدولة العثمانية منها لغة القرآن واهمالها والانزلاق إلى الانتصار على الجانب المادي في فهم الحضارة وضعف حقيقة الولاء البراء مما أدى إلى الانفتاح على الكفار وما أورث بعد ذلك من إسقاط الحاجز النفسي وتدميره .

ورغم أن محاولات الإصلاح تتابعت والحلول قدمت من جانبها إلا أنها تارة أخطأت التشخيص لأزمة الأمة وعلتها وتارة أخرى أخطأت في تقديم الحل المناسب من حيث توقيتته ووسائله وفعاليتها إلا أن هذه المحاولات ظلت تعبر عن مؤشر التجدد الذاتي في الأمة وتواصلها الحضاري حتى لو بدا حلها مرة خاطئا ، ومرة قاصرا . (١)

(١) انظر في مجمل هذه الأفكار حول المأزق الحضاري أبحاثنا المختلفة كـ -

الأزمة الفكرية : مقترح وعلاج

الفكر ووحدة الأمة الاسلامية

الاجتهاد والتقليد (تحت الطبع)

الأزمة الفكرية وإسلامية المعرفة (ورقة عمل)

ثانيا : -

محاولات الاصلاح « نظرة تاريخية » : -

إن الأمة الاسلامية تجتاز الآن مرحلة من العجز وفقدان التوازن إزاء مواجهة عدة تراكمات تكاثفت عبر الأجيال من تخلف حضاري وفقدان للهوية وأزمات اقتصادية واجتماعية فالأزمة التي تعيشها الأمة المسلمة اليوم عميقة الجذور بعيدة الأغوار . لقد أفلت زمام الأمور من أيدي المسلمين منذ عهد بعيد وفوجئوا في أواخر عهد الخلافة العثمانية بالتحدي الغربي ماثلا أمامهم كعملاق انطلق من قمم خفي حيث لم يكونوا على ادراك تام لطبيعة التحول التي بدأ الغرب منذ بداية احتكاكه بالمسلمين كما لم يقدرُوا رد الفعل الغربي للتحدي الاسلامي . لقد تمثل الغرب من الحضارة الاسلامية في بالأندلس وصقلية ما رأى نفسه بحاجة إليه وبنى لنفسه جذور وقواعد حضارة بعنوان دراسته . وسرعان ما انتزعت القيادة من الأمة الاسلامية وحلت محلها في تقرير مصير البشرية وآلت شمس هذه الأمة إلى الغروب . إن الخروج من حالة الضياع التي تعاني منها أمتنا اليوم يتطلب استقراء التاريخ واستخلاص الدروس والعبر منه بتحليل حوادثه ووقائعه ودراسة سننه وقوانين كي نتعظ ونعتبر ونبين طرائق التخطيط السليم المستقل أفضل وقد تكون أجدر الفترات بالدراسة والتأمل فترة الدولة العثمانية فهي دولة ما على أثر انهيار كامل للأمة الاسلامية ظن معه أن لا قيام لها بعده ولكن سرعان ما استعادت الأمة حيويتها وحياتها على أيدي أبنائها العثمانيين وعادت لتصدر الدنيا مرة أخرى وقيادة ركب البشرية ولأن هذه الفترة بملابساتها المختلفة هي التي أثرت التأثير الأكبر في تشكيل التحدي الغربي وتحديد ملامح صورته وحين برزت ملامحه بدأت من ناحية الأمة الاسلامية المحاولات المضادة والنظر إليه على أنه تحد أكثر منه استجابة للتحدي .

محاولات الاصلاح : -

أ (تجربة الدولة العثمانية : -

حين أحست الدولة العثمانية أن الحضارة الغربية تأخذ شكل التقليد لا الإبداع والابتكار وبناء الذات فاعتبرت منتجات الحضارة كل شيء وغفلت عن آثار الفكر والثقافة في بناء هذه الحضارة بتقليد؟ في كل الأمور التي ظن أنها هي التي نقلتهم إلى مواقع القوة وذلك بنقل معطيات التقنية فاتجه القادة العثمانيون منذ عهد سليم الأول نحو الأوربية الحديثة عن طريق إيفار البعثات من أبناء الأمة الاسلامية إلى أوربا لتعليم الفنون الحربية والصناعات والادارة العسكرية والملاحة والفنون البحرية التي اغتنمت الفرصة وأعادتهم سهاما تطعن الامبراطورية المتداعية في الصميم لتتهاوى على يد أبنائها الذين دعوا إلى الاصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفق النمط الغربي فبرزت الدعوة القومية التي حمل لواءها حزب الاتحاد والترقي في محاولة لإحياء القومية الطورانية مما أيقظ النزعة القومية في البلاد التي كانت تتبع الخلافة وتمكنت العناصر القومية ودعاة التغريب من الإطاحة بالسلطان «عبد الحميد» الثاني وطوي علم الخلافة - العثمانية ووضع «أتاتورك» وأتباعه تركيا على طريق التبعية للغرب وانتهت هذه المحاولة إلى خلق كيان هزيل تحتل أعماقه من كانت بالأمس أحقر تابعيه وهي اليونان .

ب (التجارب الأخرى : -

تباينت أساليب الولايات المستقلة عن الدولة العثمانية في معالجة المشكلات الموروثة عن الدولة الأم ما بين اتجاه نحو الأصول الاسلامية وتوجه آخر نحو محاكاة الغرب فعلى الصعيد الاسلامي قامت حركات في الهند واليمن ونجد والسودان وليبيا عملت كلها على إحياء العقائد والأصول الاسلامية بينما وفي الوقت ذاته تكونت أحزاب وجمعيات مثل الجمعية الطورانية وتركيا الفتاة - بهرها التقدم الحضاري الغربي وصاحبته تطلعات سياسية مما كان لها الأثر في تمزيق الخلافة العثمانية وبرزت بين العرب جمعية العهد لتنادي بالوحدة العربية التي تحولت إلى تيار حاكم مسيطر في أكثر من بلد عربي فيما بعد . وقد اجتمعت كل هذه التيارات على تضارب مصالحها على إدارة ظهرها للإسلام وبالطبع لم تتبن الحل الاسلامي لأزمة الأمة وانتهت إلى انقسام قيادات المسلمين الراغبة

في التغيير إلى معسكرين أساسيين متباينين في الرؤية والأهداف والشعارات والتنظيمات والمنطلقات ومع ازدياد تحديات الحضارة الغربية قويت عوامل الانقسام بين هذين الفريقين وتطورت خلافاتها (١) .

نتائج فشل محاولات الإصلاح : -

كانت الصورة المشوهة التي أعطاها الحكم العثماني في عهده الأخيرة عن نظام الحكم الاسلامي سببا كافيا لكي يبدو الاسلام لدى عامة الناس وكأنه سبب أزمة هذه الأمة وهو أن جعل الكثير من المثقفين المبهورين بالحضارة الغربية يتساءلون هل يمكن للإسلام أن يجعلنا في مستوى الغرب أو خير منه ؟ فهذه الدولة العثمانية هي دولة خلافة المسلمين . وواقع الأمر أن هذه الفئة لم تتمكن من التمييز بين مبادئ الاسلام القويمة وبين ممارسة الاسلام من قبل مسلمي ذلك الوقت فأصدرت ذلك الحكم الجائر على الاسلام ولقد عبر عن ذلك توجهات على امتداد بلاد المسلمين مثل «أتاتورك» وحزبه ، و«أحمد خان» ومجموعته ونادى بذلك أيضا «أحمد لطفي السيد» و«قاسم أمين» و«طه حسين» ومعظم من تأثروا بهم وتعلمذوا عليهم مع اقتناعهم بأهمية التغلب على كل مقاومة من البنية الاجتماعية أو الدينية أو الثقافية القديمة لضمان النتائج وتحقيق التقدم الحضاري . ولقد تباينت مواقفهم تجاه الاسلام فمن قائل بالتخلي التام عن الاسلام وتراثه ومن قائل بإمكان التعايش مع شئ من الدين مع إتمام البناء الحضاري بعيدا عنه ومنهم من يرى تجاوزه تماما واعتبر هؤلاء أن الموضوعية للأزمة من لوازم العقل أو العلم واختزلوا العقل واعتبروه مرادفا للعلم وفي مقابل هؤلاء وقف المعسكر الثاني الذي يرى أن السبب في تخلف المسلمين هو البعد عن الاسلام وقيمه مع اختلافهم في التفاصيل .

(١) توجد إشارات لبعض هذه النقاط في : - مركز الدراسات الاسلامية الفلسطينية ، ملاحظات حول المشروع الاسلامي المعاصر بحث غير منشور . انظر أيضا في بدايات عملية التقريب : مركز الدراسات الاسلامية الفلسطينية ، الشرق والغرب .. ، بحث غير منشور .

فأرجع البعض الأمر إلى تشويه العقيدة أو ضعف الإيمان والانشغال بالترف والبعض الآخر أرجعه إلى توقف حركة الجهاد منذ القرن الرابع الهجري واتهام الشريعة بالعجز وتخلي الناس عنها أو انتقال القيادة من أيدي العرب الفاقهين للرسالة إلى آخرين عجزوا عن فهمها وتطبيقها بالصورة المثلى أو الغزو الفكري

الاستعماري الذي هدم الخلافة .

ما يقترحه المعسكران من حلول : -

لاشك أن المقدمات الخاطئة تسلم إلى النتائج الخاطئة وهذا كان شأن الحلول المقترحة لكلا الطرفين مبنية على نظرة كل منهما لأسباب التخلف فالمعسكر الأول إذ يرى البدء بالإصلاح العقلي والاجتماعي والسياسي ولو تطلب ذلك استخدام القوة والعنف فإنه على النقيض يرى المعسكر الثاني ضرورة مقاومة الفكر الأجنبي وإحياء الثقافة الإسلامية وتنقية العقيدة من الشوائب والرجوع إلى الكتاب والسنة ثم استيعاب الحضارة الحديثة بعد تنقيتها من الشوائب وتكييفها مع أحكام وقيم الإسلام .

واقع المسلمين اليوم : -

بعد إقصاء السلطان «عبد الحميد» الثاني ألقى السواد الأعظم من جماهير الأمة بزمام الأمور إلى الفريق الأول في معظم الأقطار المسلمة متجهين نحو الغرب وهكذا ألقى مسلمو تركيا لأتاتورك وحزبه بكل مقدراتهم مغمض العيون قرابة نصف قرن من الزمان وفي مصر أجهضت حركة محمد علي التجديدية في التصنيع والتعليم والزراعة وغيرها لعوامل شتى وأفادت الجماهير على دولة مثقلة بالديون يحكمها المندوب السامي البريطاني ثم أطاحت القوات المسلحة المصرية بقيادة بعض ضباطها بنظام أحفاد «محمد علي» ، وأعطى «عبد الناصر» للنظام الجديد صيغة قومية عربية تقدمية وأيده السواد الأعظم في مصر وسوريا وكذلك الجماهير المسلمة العربية التي قبلت من التضحيات والتنازلات الكثير من أجل الحضارة والتقدم ولكن النظام تحول إلى تأليه للقيادة وبقيت الجماهير المسلمة تلهث وراء السراب حتى انهارت مكانة القيادة وسمعتها بعد سلسلة من الهزائم السياسية والعسكرية بدأت بالانفصال بين مصر وسوريا وحرب اليمن وهزيمة (١٩٦٧) ومما لاشك فيه أنه كانت لدى «عبد الناصر» فترة نادرة للمراجعة ونقد الذات بعد أن تشبثت الجماهير ببقائه رافضة استقالته ولكنه حمل الاستعمار والرجعية النتائج المخزية لممارساته السياسية . وينسحب حال مصر على العديد من الدول العربية والإسلامية ولا يقدمه؟ عنها كثيرا وما جنت تلك الدول غير الفقر والتخلف والجهل وفقدان العزة والكرامة والحرية .

الصراع بين المعسكرين : -

استمر المعسكران في طرح الحلول على الساحة الإسلامية رغم فشلها السابق وقد مضى على صراعهما قرن من الزمان منصرفين عن جوهر القضية الأصلية التي كانت السبب الرئيسي في الصراع وبالرغم من الفرص التي أتاحت للمعسكر الأول ليحقق شيئاً في كثير من الأقطار مثل تركيا ومصر ثم العراق وسوريا وأندونيسيا وباكستان وغيرها فقد فشل في تحقيق الإصلاح العقلي أو الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي ولم يحقق المعسكر الثاني إلا ومضات هشة ضعيفة محدودة التأثير هنا وهناك ما لبثت أن أجهضت من قبل مراكز القوى المختلفة .

تحليل المواقف : -

استمر التناقض الشديد بين المعسكرين فما يعتبره الفريق الأول وسيلة للنهضة والتقدم ، يعتبره الفريق الآخر مصدراً للعمالة والتبعية والتحليل والانحطاط وكل ما يعتبره الفريق الثاني مصدراً للأصالة وتحقيق الذات يراه الفريق الأول دعائم للتخلف ودعوة للإن؟؛ و..؟ رغم ما عليه ويتفق المعسكران أن الأمة تمر بأسوأ مراحل التخلف إلا أن كل تمسك بطروحاته في حل هذه القضية ويُجمع الفريقان على أن وسائل إحداث التغيير هي ثلاثة : -

- (١) الإصلاح بطريق الدعوة والعمل السياسي السليم .
- (٢) الإصلاح باستقطاب مراكز القوى لانتزاع السلطة وإحداث التغيير من خلالها .
- (٣) الإصلاح من خلال تغيبي مفاهيم الأمة وتحريفها على رفض الواقع وتنويرها لبلوغ الهدف .

نقد وتقويم وسائل المعسكرين : -

مما سبق نستطيع أن نضع كلا الفريقين في خندق واحد في موقفهما العقلي وبصرف النظر عن سائر طروحاتهما . هذا الموقف يدل على اتحاد الجذور الفكرية لكل منهما ويرجع إلى عهد الصدر الأول من جيل النبوة حيث كان الحكم هو كل شيء وبيده قدر الأمة ومصيرها وكان هذا هو سبب تشبث دعاة الإصلاح والنهضة بالسلطة وإهمال العوامل الأخرى من

فكرية وثقافية . مع أن الوصول إلى هذه السلطة قد يكون سببا في كشف عورات العديد من القيم والمبادئ التي تنهار حين تعجز عن التعامل مع الواقع . وبالتالي تنهار ثقة الجماهير بها وكثيرا ما يلتقي الفريقان في تحالفات مرحلية بغرض الوصول للسلطة هذه التحالفات سرعان ما تنهار عند البدء في توزيع الغنائم وتبدأ التصفيات التي تشغل الجميع عن القضية الجوهرية ومثال على ذلك ما تم بين مجاهدي خلق والماركسيين المسلمين وبين أتباع الخميني لإنجاح الثورة في إيران وما تم بين الإخوان المسلمين وبين كل من حزب البعث في العراق والجهة الوطنية في سوريا وحزب الوفد في مصر وما تم بين حزب السلامة وبين حزب العدالة في تركيا وما تم بين قيادة الجماعة الإسلامية وبين ضياء الحق في باكستان إذ سرعان ما تنهار هذه التحالفات بسبب عدم الثقة بين الطرفين ، كذلك فإننا نجد أن اليسار من الفريق الأول يستولي على القيم التي يمثلها الفريق الثاني ويطورها وينادي بالاهتمام بالتراث الإسلامي بصورة علمية ثورية على حد تعبيره ويبحث عن نسب له في الجذور الإسلامية كأفكار «أبي ذر الغفاري» و«علي بن أبي طالب» رضي الله عنهما - وهذا يساعدهم على تحقيق عدة أهداف في مقدمتها : -

- (١) الاستفادة من الشعارات الإسلامية في تحريك الجماهير
- (٢) محاولة تبرئتهم من التبعية الفكرية الماركسية الغربية
- (٣) دفع القيادات الإسلامية إلى مناقشة النهضة والتقدم ونقل الحضارة مع ما تفتقر إليه هذه القيادات من رؤية متكاملة واضحة في هذه القضايا
- (٤) المقدرة على الانتشار من خلال استقطاب الجماهير هروبا من واقعها السع وفي المقابل ذلك يكشف الإسلاميون حديثهم حول صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان كما يقومون بتعرية الماركسيين من الغلالة الإسلامية ومن ارتباطهم الفكري بالجذور الإسلامية وولائهم لقياداتهم المعاصرة .

تقويم المحاولات السابقة : -

وهكذا انتهت محاولات الإصلاح وقد انكشفت دولة الخلافة إلى رقعة من الأرض تشغل القواعد الأجنبية جزءا منها والولايات المستقلة قد احتلت أجزاء من أرضها وأنشئ كيان مصطنع على أرض أولى القبلتين وثالث الحرمين ولا يخفى على أحد مظاهر التردى الاقتصادي والاجتماعي الذي وصلت إليه الأمة الآن ومن أهم مظاهرها : -

مظاهر الأزمة : -

قد يتوهم الناس أن الأمة الإسلامية قد أضحت في خير وعافية على يد قيادات تاريخية ويضيع صوت الحق في خضم هذا الضجيج الاعلامي ولعل أزمة هذه الأمة يرجع بعضها إلى الأفراد والبعض إلى الجماعات والمؤسسات والكثير إلى الممارسات الرسمية ومن أهم مظاهرها : - فقدان الإحساس بالأمن لدى الجماهير اليوم وانعدام الثقة والخوف والانتواء والسلبية وضيق الأفق واليأس من كل تغيير نحو الأفضل ومما يزيد من هذه المظاهر التصدي لعلاجها بتبني ردود الفعل تجاه التطرف بدلا من الأخذ بأسباب الحضارة بشكل مخطط مدروسي ومن مظاهر الأزمة أيضا الاعتقاد بدور لليهود في كل أحداث هذا الوجود وكذلك انحطاط الممارسات السياسية كما فقدت الأمة أصالتها وقدرتها على الإبداع ووقعت تحت سيطرة المقلوبين التابعين .

نقد المراجعات : -

بدأت مشاعر الرغبة في المراجعة والنقد الذاتي تظهر بقوة بعد فشل سائر محاولات الإصلاح وكثرت أحاديث الدعوة إلى إعادة النظر في المفاهيم والنظريات التي كانت مطروحة حين اتسعت رقعة الخلل في هذه المرحلة من حياة الأمة ولم يعد هناك اختلاف بين كل الفصائل السياسية والشعبية على الأزمة القاتلة التي تعيش فيها الأمة ومحاولة كل التيارات الفكرية أن تقدم تفسيراً لها - كل من وجهة نظره الفكرية والثقافية وربما حسب مصالحه أحياناً كما أن الأنظمة الحاكمة وأجهزة إعلامها قد ركبت موجة التفسيرات ملقية بالمسئولية على هذا الخصم أو ذاك المعسكر أو العنصر حتى يمكنها الاحتفاظ برصيد جماهيري مع تجاهل التحديد الجاد والصادق لأسباب الأزمة أما أعداء الأمة الإسلامية فيحاول بعضهم إلقاء التبعة على التمسك بالدين وظهور اللاعقلانية والسلبية والبعض الآخر يؤكد على أن تكوين العقل المسلم هو ما أدى إلى هذه الحال وكل ذلك للتغطية على حقيقة الأزمة . ذلك أن معظم عمليات النقد والتقويم لم تقترن بالشروط الموضوعية اللازمة لإنجاح عمليات المراجعة والنقد الذاتي أو بطرح البديل الموضوعي الصالح من ناحية أخرى ومن هنا فقد بدأت عمليات المراجعة ذاتها في إفراز الكثير من الآثار السلبية ذلك أن منهج المراجعة جزء أصيل من قيامها على قواعد منضبطة .

بوادر الصحوة : -

بعد تلك المرحلة الطويلة في ظل محاولات الإصلاح وعمليات المراجعة التي أعقبتها ولم تكن إلا سرايا ، أصاغت الجماهير المسلمة سمعها لنداءات العودة إلى الإسلام من جديد والتي وصلتها من على المنابر ودور تعليم القرآن الكريم وبقايا العناصر الإسلامية المؤمنة ولقد كانت دوافع العودة نفسها إلى الإسلام متنوعة فمن الإحساس بقرب انتهاء الدنيا إلى الاعتقاد بإقبال الدنيا على الإسلاميين إلى الاحتكام إلى العقل والموضوعية وهناك أمران يجب أن يضعهما المعسكر الإسلامي بوضوح في كل تحركاته على الساحة الإسلامية : -

- (١) إن عودة الجماهير المسلمة إلى الإسلام ليست بالصحوة النهائية إلا إذا تلتقت الاستجابة الكاملة لظموحاتها والحل الأمثل لمشكلاتها .
- (٢) لا بد للإسلاميين من أن يحرصوا على نقل الإسلام إلى واقع الناس اليوم لا على نقل الناس إلى الواقع التاريخي الذي يذكروهم بالممارسات الخاطئة

في حذة المسلمين .

خلاصة الأمر أن : - أزمة هذه الأمة هي أزمة فكرية تندرج تحتها سائر الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . والأزمة الفكرية إما أن تحدث نتيجة لاضطراب مصادر الفكر أو اختلال طرائقه أو مناهجه أو عن ذلك كله معا وهي تنشأ عن قابلية واستعداد ولقد تجسدت هذه الأزمة في غياب الرؤية الواضحة وانعدام الأصالة الثقافية والتوازن النفسي واضطراب المفاهيم وازدواجية التعليم واختلال الأهداف وانهيار الأنظمة والمؤسسات ثم إن اضطراب البناء الفكري للإنسان المسلم هو التفسير المقنع لسائر ظواهر التخلف بمفهومه الشامل - المتفشية في سائر أجزاء الأمة الاسلامية .

ثالثا : - موضوع الأزمة الفكرية من حقيقة المأزق الحضاري : -

خلاصة القول أن المأزق الحضاري للمسلمين وللأمة لم يقتصر فحسب على نقض العرى عروة عروة وعقدة بعد عقدة ، ولكنه كان كذلك في منهج إقامة العرى وإصلاحها وجعلها عروة وثقى كما كانت عليه في الطبقة الأولى - على حد تعبير الجاحظ ويكمن ذلك في خطأ هؤلاء في تشخيص طبيعة الأزمة والمأزق من خلال : فهم طبيعة العروة التي نقضت ؟ وخصائصها ؟ وما عوامل نقضها ؟ ومظاهر ذلك ؟ وتحديد السبب الأصيل خلف نقضها ؟ والبحث في كيفية إصلاحها وإعادةتها على ما كانت عليه ؟

وهي كلها مسائل من طبيعة فكرية لم تول الاهتمام الكافي من الدرس والتحليل والعظة والاعتبار . وربما أن هذا يجعلنا نتعرض لنقطة مهمة تسهم في حقيقة تشخيص علة الأمة ومن ثم رسم بداية الطريق لاحكام العرى كما كانت على العهد الأول في صدر الاسلام (الخلافة الراشدة) وهي موضع الأزمة الفكرية من حقيقة المأزق الحضاري .

في ضوء هذا العرض السابق لحقيقة المأزق الحضاري وعلاقته بالأزمة الفكرية للأمة وفي سياق معالجة بعض القضايا ذات الخطورة مثل «العقل والوحي ، والاجتهاد والتقليد والعلماء والسلطة ... الخ» .

يبدو للبعض أن هناك اعتسافا في تفسير حديث النبي صلوات الله وسلامه عليه عن نقض عرى الاسلام فإن نص الحديث لم يشير إلى ما يمكن

اعتبار أزمة الفكر هي أساس نقض عُرى الاسلام وهذا الرأي الواقف عند
ظاهر الحديث لا يتبين حقيقتين : -

الأولى : - أن ذكر الحديث النبوي لعروة الحكم في مفتتح عملية النقض
وللصلاة في آخرها يشير حقيقة إلى أنواع أخرى من العرى ما بين نقض
العروتين الأساسيتين استطعنا أن ترددها بشكل منطقي وعلمي دون أدنى
اعتساف إلى تراكم الأزمة الفكرية وهذا يتبين من العرض المفصل السابق .

الثانية : - أن نقض عروة الحكم وتفسير ذلك تاريخيا بل وحتى الوقت
الحضار إنما يؤكد أن نقض العروة رغم أنه اتخذ الحكم مجالا إلا أنه في
حقيقته (تاريخيا وحاضرا) يعود لعوامل وأسباب فكرية سواء بالنسبة لمفهوم
السلطة وطبيعتها وحقيقة وظيفتها وأساليب تقويمها ورقابتها وطرق مواجهة
انحرافاتهما والانفصام بين توجيه العلماء وممارسة السلطة إنه في حقيقته أزمة في
منهج التفكير ترتب عليه خطأ في الحركة وكانت السلطة أو الحكم هي أولى
العرى لا باعتبارها قضية سياسية في الأساس ولكن باعتبارها قضية فكرية
وغُلفت المقولات بالتوجهات السياسية فيما بعد ، فإن أول قضية نشأ فيها
الخلاف في تاريخ المسلمين كانت قضية «الحكم» في حادثة السقيفة فأولية
نقض عروة الحكم لا ينفي - بل ربما يؤكد - التفسير الفكري لها مقارنا
بمحاولات الخليفة الأول والثاني تنظيم قضية السلطة وفق نهج منتظم وقادر على
اجتياز ابتلاء «الحكم» .

أما عن نقض عروة الصلاة فيجب هنا أن نشير إلى أن حال المسلمين
الذي من نتيجة أزمة فكرهم ومنهج تفكيرهم ، صار يتعامل مع الصلاة
كحركات قيام وعود ومظهر أساس يجعل المسلم يتمسك به ولو شكلا ، وإن
هذا التفكير في حد ذاته ليس إلا نقضا لعروة الصلاة التي لم يصبح لها أي
مدلول عملي على فكرة «الأخوة» أو أي مردود على قضية «الجماعة» أو أي
ثمرة على ارتباط حركة العبادة بكل حركة في الحياة أو مدلولها في عملية
النظام والتنظيم ووحدة القبلة والاتجاه والهدف والمقصد وصلة دائمة لا تنقطع
بين العبد وربّه إدارا منه بعبوديته واعترافا في كل وقت بوحدانيته وبما تدل
عليه كلمة التوحيد من حركة حياتية في واقع المسلمين .

وربما هذا يعود من خلال التمسك الشكلي إلى الحديث النبوي الذي يحذر
من ترك الصلاة لأنها الفرق والفصل بني الكافرين والمسلمين فاتخذ المسلم من
تأديته للصلاة حركات وشكل لا لوازم ومقتضيات وشروط وفهم متسع لحقيقة
الصلاة رمزا للتمسك بإسلامه وهو لا يعني أن إقامة الصلاة عمران كامل لحياة
الأمة وليس عبثا أن يستخدم هنا لفظ الأقامة وأن تركها أنواع حتى مع أدائها

الشكلي وأن تضييعها حادث حتى وإن قضاها عملا وربما هذا التفسير يجد
سنده في حديث النبي حينما سأل «أنهلك وفيينا الصالحون ، قال نعم : إذا
كثر الخبث» ويجد تأييده حينما أتى أمر الله أن يهلك قرية بما أفسد فيها
أهلها فقال له سبحانه ملائكته إن فيهم عبدك فلان العابد المصلي قال سبحانه ...
به فبدءوا ...»

ومن هنا يمكن مع هذا البيان ودون أدنى اعتساف أن نجعل حقيقة أزمة
الأمة «أزمة فكرية» حتى وإن اقتصر الحديث على ذكر نقض عروتي الحكم
والصلاة .

وهنا أيضا يجب أن نشير إلى أن الأزمة الفكرية تأخذ مجموعة من
الأشكال والمظاهر التي يجب التمييز بينها حتى لا يختلط الأمر على البعض
وينافح عن أن الأزمة لم تكن فكرية في جوهرها وأهمها ما يأتي : -

الأول : - سوء الفهم للقضايا الأساسية للأمة وعوج منهج التفكير فيها .

الثاني : - عدم التشخيص السليم لطبيعة أزمة الأمة .

الثالث : - عدم القدرة على اقتراح الحلول المناسبة لهذه الأزمة من حيث : -
الوسائل - مستلزمات الحل - إمكانات الحل - عقبات الحل - الحفاظ على
الحل ذاته من العوج والانحراف .

الرابع : - تآزيم الحل ، أي تحويله إلى جزء من الأزمة لا ممارسته كحل
للمشكلة .

كل ذلك أي كان موضوعه «السياسة - الاقتصاد - المعرفة - الثقافة -
الفكر - المنهج - التراث - الاجتماع - العمران والحضارة - العلم ... الخ»

قد ساهم في إضافة أبعادا جديدة للأزمة الفكرية للأمة ولا يمكن أن تجد
تفسيرها إلا في «أزمة الفكر» خاصة إذا ما اتخذ الفكر بمفهومه الشامل
والناظمة لعل تلك الموضوعات والقضايا والمحدد لطرق ومناهج التفكير بها وفي
قضاياها .

ونستطيع القول أن هذا الطرح الفكري هو بداية الطريق في إعطاء

التفكير وإصلاح مناهجه حقه في الاعتبار بالتفكير بعملية بلوغ الشهود الحضاري للأمة وهو القادر على تجاوز كل الأطروحات الأخرى (الطرح العقيدي الضيق المؤدي إلي التثاق؟ والطرح السياسي الحركي المؤدي إلى الصدام والأخطاء في الحركة دون مردود على عملية الإصلاح الحضاري والطرح الأحادي والتجزئي أيا كانت طبيعته وفكرته لأنه لا ينظر النظر الشامل والكلية لعملية الإصلاح الحضاري .

وقد يوالي البعض انتقاده لهذا التفسير من كونه أنه في رده كل الأزمات التي واجهت الأمة إلى الفكر وأزمته ومناهجه ، أن ذلك ليس إلا الطرح الأحادي بعينه والبحث عن الحلول التجزئية وحقيقة الأمر أن هذا الانتقاد كسابقه لا يفهم عدة أمور : - (١)

أولا : - مفهوم الفكر : فالمقصود بالفكر هنا الفكر الموصوف بالأسلا؟ فهو إذا كان في طبيعته فكر ب؟ إلا أنه في جوهره مهتد بهداية الوحي ويسلك سبيل الذين اهتموا بهداية الوحي لتحقيق غايات ومقاصد شرعية وكلما استوفى الفكر هذه الأوصاف بشكل أدق وأوفر كان فكرا إسلاميا وكلما نقص من هذا شئ نقص وصفه تبعا لذلك .

ثانيا : - وظيفة الفكر : تشكيل قاعدة هدية الأمة الاسلامية عالم اليوم بكل خواصها وخصائصها مع القدرة التامة على الاستجابة لمتطلبات الواقع والرد على تحدياته واجتياز عقباته والاجابة على تساؤلاته فهذا النوع من الفكر المستند إلى كليات الاسلام ومقاصده والمست؟؟ الصالح هو الفكر الذي تحتاجه الأمة ليقيلها من عثرتها ويعينها على بلوغ شهودها الحضاري .

ثالثا : - علاقة الفكر بالأطروحات والحلول الأحادية والتجزئية الأخرى : الفكر إذا ما اتخذناه على أنه الناظم بين العناصر المختلفة والقادر على تحقيق التكامل بينها وترجمتها إلى واقع معاش يفقه الواقع من ناحية والأولويات من ناحية أخرى تعرف أنه بهذا المعنى أن طرحه كلي عام لا جزئي خاص شامل لا أحادي لا يرى الأجزاء بمعزل عن كلياتها الأساسية ونظمها في نسق فكري واحد وتفاعلها .

إنه فكر المقاصد الذي يؤكد النظر إلى شمول الاسلام ويرفض تجزئته لأن هذا التفكير هو الكفيل بتحقيق الناظم والاتساق بين عناصر الأمة المختلفة ومجالات الشريعة المتنوعة وضبط النسب في نظام الاسلام بما يجد

وسلما للأولويات في إطار فقه كامل لها .

(١) انظر في ذلك : بحثنا حول : - الفكر ووحدة الأمة الاسلامية ، بحث مقدم لمؤتمر رابطة الشباب العربي المسلم

قضايا الأزمة الفكرية ... قضايا تبحث عن مخرج : -

تبين ما للأمة من تأثير على المأزق الحضاري الشامل للأمة والذي أثر تراكم قضاياها دون حل مناسب إلى بُعد الأمة عن شهودها الحضاري مسافات واستحكام حلقات أزمته الفكرية بصورة تؤكد غفلة المسلمين عن طول الأمد مما أدى إلى قسوة القلوب التي شكلت أساسا للفصام بين المسلمين وشريعة الله وهو ما وقف حجرا عثرة في سبيل عملية الإصلاح والإحياء الحضاري الشامل . وكما أكدنا فإن هناك مجموعة من القضايا التي تشكل محتوى الأزمة الفكرية وتكرس وجودها تتطلب تصحيحا للنظر إليها واقتراح منهج مختلف للتفكير فيها عما شاع في النظر إليها من العقل المسلم الذي تُذر له أن يتعامل معها تعاملًا خاطئا وقاصرا أو متوانيا ومن أهم هذه القضايا :

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

النص يرشد العقل ويوجهه والعقل يتفهم النص ويستوعبه ويحسن تطبيقه وفهمه وربطه بالواقع دون أي عملية صراع ولكن الآن ما أكثر الكتابات وما أكثر الدراسات التي تتناول قضية النص والعقل وهي قضية مفتعلة - كما قلت - كانت من نتائج الصراع المبكر الذي حدث يوم انقسمت الأمة إلى طوائف وإلى فرق ك فريق تمسك بالنص في قضية الإمامة ورفض العقل ، وفريق طرح العقل في مزاجهة النص ، قضية تحتاج إلى معالجة تحتاج إلى إعادة طرح وتفسير . إنك تستطيع الآن لو أن مريضا لديه خُراج وعنده آلام تستطيع أن تعطيه بعض المسكنات فيفقد الإحساس بالألم لكن لا يعني أنه شفي . يحتاج المريض أن تزال الجرثومة برفع الخُراج وقد لا يكون إلا بعملية جراحية . نحن عالجننا هذا الأمر بكتابات وقلنا : لا ، ليس هناك نص وعقل متمايزان ، والشريعة عقلية والنص طيب والعقل طيب ولكن دائما يعاد طرح المشكلة وينشب الصراع من جديد فهذه المعضلات الفكرية هي بمثابة الخُراج بمثابة المرض الخبيث في الجسم الذي يحتاج إلى استئصال ، والاستئصال يحتاج إلى دراسة وتقديم مقنع فحينما نقدم مثلا دراسة في بيان

المنظور الاسلامي الحقيقي لقضية النص والعقل ونفسر كيف نحول النص والعقل إلى فريقين وافتعل صراع بينهما وحدث ما حدث ، آنذاك ينتهي الخُراج ويصبح واضحا ومفهوما وكلما أعيد طرح المشكلة كان الناس على وعي طيب يحول دون تحويلها إلى قضية صراع ودون أن تتحول الأمة إلى فريقين بصطرعان حول هذا الموضوع .

مكانة العقل في الإسلام : -

(١) استخلف الله - عز وجل - الانسان في الأرض وكرمه على سائر المخلوقات بالعقل الذي يمكنه من أداء رسالته وكانت دعوة القرآن الكريم للعقل في ارتياد آفاق الكون واكتشاف نواميسه لتتواءم حياة الانسان مع مسيرة الكون ولقد حدد الله - جلت حكمته - للعقل مجال فاعليته كما حدد الآفاق التي لاينبغي للعقل أن يبدد فيها طاقته ولقد وردت مادة - «عقل» وتصاريفها في تسع وأربعين آية من آيات الكتاب الكريم . وجاء ذكر العقل في ست عشرة آية أخرى بمادة «اللب» كما ورد ذكر العقل في القرآن العظيم في مادة «الفؤاد» ست عشرة مرة منها سبع مرات اقترن فيها السمع والبصر بالفؤاد ، ووردت مادة «فكر» في كتاب الله ثمانى عشرة مرة ولقد تعرضت السنة كثيرا لبيان فضل العقل وشرفه وأهميته وبيان أهم خصائص العقلاء وصفاتهم ، ولقد اتفقت الكلمة على أن أهم مقاصد الشرائع على اختلافها هو حفظ الضروريات الخمسة التي تشمل : الدين والنفس والعرض والمال فضلا عن العقل الذي يعتبر أشدها ضرورة وأهمية وجلها متوقف عليه .

لماذا الحديث عن العقل : -

إن دينا يضع العقل في قمة ضروريات الحياة حرى بأن يسود هذا العالم وكان يحق جديرا بقيادة البشرية ، لهذا نرى ضرورة الحديث عن العقل وأثره في المنهاجية الاسلامية ولابد لنا من وضع العقل في موقع الريادة منها . (١)

(١) انظر في تفصيل ذلك بحثنا : - العقل وموقعه من المنهجية الاسلامية .

الخروج من الأزمة : -

بعد هذا العرض السريع لتلك المحاولات التي بذلت لإعطاء تفسير مقنع

لأزمة الأمة الإسلامية فإننا نستطيع أن نؤكد أن البحث عن المتهم لن يعطي الأمة الحل المنشود إلا بقدر تحديد عوامل الأزمة الأساسية التي تسهم في تحديد مظاهرها كمقدمة أساسية للحل . بل إن معظم قوى التغيير المخلصة لا بد أن تتخلى عن مجموعة السلبيات وتأخذ بأسباب التغيير من الإيجابيات التي تعرض لبعضها حتى تجد سبيلها للخروج من هذه الأزمة وفق عقلية إسلامية واعية التي استطاع بها الرعيل الأول القفز بهذه الأمة إلى مواقع القيادة البشرية وبلوغ شهادتهم على العالمين .

تحديد مجال العقل :-

إن المنهج الإسلامي يضع الوحي في مقدمة مصادر المعرفة كما يحدد للعقل مجال وآفاق تحركه حتى لا يبدد طاقته في عالم الغيب وفي قضايا لا قبل له بالجسم فيها ولا يمكنه التطرق إليه وفق ملكاته وقواه إلا أننا نستطيع القول أن كل معرفة في الإسلام لا بد من التدليل عليها والدلالة تكون من تتبع الآثار وأي حكم من الأحكام ينبغي أن يستدل عليه فقط بدليله ، إن الجفاف الروحي الذي يشكو منه الغرب الآن قد وصل إليه بإهماله معطيات الوحي واستخدام العقل وحده بينما نجد المسلمين قد اعتراهم التخلف حين أهملوا دور العقل واعتبروا الكون وارتداد آفاه للعبرة والتدبر ، «وليس لاكتشاف النواميس وتسخيرها لخدمة البشرية» .

تحرير العقل المسلم :-

إن العقل المسلم قد فرض عليه الانغلاق داخل طروحات تبلورت في أوضاع وأزمنة وأمكنة مختلفة أصبحت تتحكم في رؤيته لمواجهة الواقع المعاش وهو مما أورثه العجز عن تجديد وتحديث أدواته من خلال هذا الواقع ونتيجة لذلك الانغلاق أصبح الإنسان المسلم عاجزا عن معالجة قضايا الواقع إلا من خلال فتاوي وأفكار من سبقوه والتي ارتبطت بواقع مضى ووقائع مختلفة وذلك بالقياس عليها أو التلفيق بينها وهو أمر جعل الكثير من طروحاته تصطدم بالواقع في بعض الأحيان ولعل هذا العجز هو المسئول الأول عن بُعد هذا الواقع من الإسلام : إن على الإسلاميين أن يجعلوا كل ما يقدمونه واضحا في أذهانهم وعقلية الأمة وأن يكون عمليا لا بمعنى الخضوع لضغوط الواقع ولكن بوضع برامج تتفهم الواقع وتأخذ معطياته وعناصره وطريقته في الاعتبار بما يمكن من عملية التطبيق في الواقع والحياة .

(ب) معضلة السببية : - (١)

(١) انظر هذا في بحثنا : الأزمة الفكرية : مقترح وعلاج

هذه قضية من قضايا العقل المسلم الكبيرة - لدي كتيب صغير في هذا الموضوع كنت كتبتة لطلبة أصول الفقه في الجامعة حول قضية التعليل والسببية - يمكن الرجوع إليه - الله سبحانه وتعالى ربط المسببات بالأسباب ، سنته ههنا اقتضت أنه لاشئ يحدث في هذا الكون بدون أسباب وهو سبحانه وتعالى الخالق للأسباب والمسببات .

وسبحانه وتعالى قد سخر من ذلك الانسان الذي يريد أن يصل إلى نتيجة دون مقدمات أو إلى سبب دون أسباب فقال « كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » . وظللت تريد الماء إذهب إلى الماء واغرف واشرب ، أما لو مسكت السبحة تذكر الله سبحانه وتعالى كما تشاء من أجل أن يأتي الماء إليك ليدخل فاك فلن يفعل ، سنة الله اقتضت أنك أنت الذي تباشر عملية الشرب وأنت أنت الذي تطلب الماء . « والنجم والشجر يسجدان » فالنجم خاضع للسنة والشجر خاضع للسنة الإلهية وأنت خاضع للسنة الإلهية كذلك والخضوع إلى الإلهية هو قانون الله سبحانه وتعالى الذي لا يمكن خرقه إلا بإرادته لا يخرقه إلا واضعه على سبيل المعجزة أو الكرامة وإلا فالسنن لا بد من ملاحظتها هذه هي عقيدة الفرد المسلم .

نجد في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري أن القضية تثور بطريقة أخرى جاءتنا من الترجمة من اليونان والتراث العالمي وإذا بهم يقولون : أن القول بوجود سبب فيه معنى مشرك . كيف ؟ قالوا لأن السبب هو المؤثر وإذا قلنا بوجود مؤثر غير الله سبحانه وتعالى فأصبح ذلك شركا . فماذا تقولون ؟ قالوا : نقول بأن العلة والسبب الوحيد في الكون هو الله سبحانه وتعالى . تصوروا لك كان لهذه الفكرة من أثر تربوي سئ على الأجيال المسلمة بعد ذلك ، أثر خطير دمر الشخصية الاسلامية تدميرا تاما أصبح علماء الكلام يناقشون في قضية السبب فحتى الامام الغزالي نسبوه إلى البدعة حينما قال : النار تحدث الاحتراق بمشيئة الله سبحانه وتعالى « قالوا : كيف تقول النار تحدث الاحتراق لأن النار لاتحدث الإحراق . قال لهم : إذن ما هي النار .. ربنا سبحانه وتعالى

خلق فيها هذا ولولا أنه قال «قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم» لاحترق ابراهيم ولكن جاءت سنة أخرى ، أمر آخر إلى النار أن تكون بردا وسلاما على ابراهيم ، فتحوّلت طبيعتها وتغيرت بموجب الارادة الإلهية والأمر الإلهي . لذلك تجد العجب العجاب حينما تقرأ تعريفات المتكلمين للعلة والسبب فيقول لك : العلة هي الموجب بإرادة الله . وأخيرا حل المشكلة الأشاعرة بأن قالوا : العلة هي المحرك للسبب وليست السبب . نقاش سخيف من العقل المسلم قرابة ثلاثة قرون إلى أن وصلنا إلى حل وسط ورأينا التناقض الفظيع . فالله سبحانه وتعالى وضع سننا وعلا وأسباب ومقدمات وخلق نتائج ، كيف تستطيع أن تنكر هذا .

حين ندرس التأثير التربوي على العقل المسلم نجد أن الانسان المسلم أصبح شخصية قلقة مهزوزة مرة تعتبر السبب وتأخذ به ، ومرة تلغي السبب ، مرة تنتظر حصول الشئ بدون أسباب ، ومرة تتوصل إلى النتيجة بأسباب غير الأسباب الموصلة إليها . وحينما يعجزها الأمر للإرادة الإلهية ويصبح الانسان في مأزق عقائدي ، يعني إما أن تناقش الموضوع فتكون انسانا لامنهجي ولاعلمي ، لاتستطيع أن تربط بين مسبب وسبب ولاتستطيع أن تربط بين نتيجة ومقدمات ، فإذاً هذه قضية أيضا من القضايا الهامة .

القضية - التأويل :

وخاصة فيما يتعلق بصفات الباري عز وجل وتأويل المتشابهات والنصوص وما جرته علينا من مشكلات .

قضية الجبر والاختيار :

قضية من قضايا الفكر التي لا بد لها من معالجة ، لانزال تثار اليوم وستثار غدا وبعد غد . فلو عرفنا أن خليفة هذه القضايا خلفية سياسية يعني باختصار شديد نستطيع أن نقول مثلا : سيدنا معاوية رضي الله عنه حين آلت إليه الخلافة سمع أحد الصحابة رضوان الله عليهم يروي حديثا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يردده في بعض الأحيان «اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا أراد لما قضيت ..» ويقولون أن معاوية تلقف هذا الحديث وعممه على الجميع ، وطلب من الناس وبدأ في مقدمتهم يردده في الصباح وفي المساء ويعتبره من الأمور المأثورة

التي لا بد من تردادها في الصباح والمساء ، هذا الشئ طيب وذكر الله سبحانه وتعالى هو جزء من اليوم لكن القضية الأساسية التي ربطت به أو بنيت عليه ، وعملية ترويح سيدنا معاوية يلهذا الأمر كانت مرتبطة بأمر أن كل هذه الأشياء التي عملتها أن أو تعمل في الدولة ، الأمور كلها الله سبحانه وتعالى هو المسئول عنها مما دفع الحسن البصري - والرجل من أئمة التابعين وكبارهم وعاصر وشهد واتصل بخمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن يكتب رسالة قيمة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يعاتبه فيها على إشاعة هذا النوع من الأفكار ويقول له أنكم ترسلون شرطتكم يهينون الناس ويظلمون الناس وتقولون هذا بقدر . إن من وكلائكم وعمالكم من يشرب الخمر ويعتدي على الناس وتقولون هذا بإرادة الله . «إن الله لا يأمر بالفحشاء أم تقولون على الله ما لا تعلمون» . رسالة طويلة قيمة جدا تعالج وتبين الخليفة السياسية وراء قضية الجبر والاختيار التي تحولت إلى قضية عقيدية . حينما ندرسها على أنها قضية أوجدتها السياسة وكل ما كتب حولها بعد ذلك وكل النقاش تخرجه من المأزق العقيدي ويصبح قضية فكرية تناقش سياسيا وتحلل وتنتهي ، ولكن حينما نناقشها من الزاوية العقيدية تكون شكلا آخر . مناقشتها من الزاوية العقيدية تستمر عملية ممزقة للأمة باستمرار : لأننا كلما ذكرناها ينقسم الناس فريقين فريق جبري وفريق قدرى وبالتالي هذا يكفر هذا وهذا ينسب ذلك إلى البدعة لكن حينما تقدم بطريقة مدروسة محللة تأخذ خليفاتها السياسية والفكرية وكيف نشأت ويقراها الناس تنتهي وتصبح قضية أخرى بعيدة عن المأزق الذي تناقش فيه .

(ج) قضية التقليد والاجتهاد : - (١)

قضية أخرى من قضايانا الحادة التي تطرح في كل زمان ومكان ، الاجتهاد والمذهبية واللامذهبية كسر باد الاجتهاد ، غلق باب الاجتهاد ، إلى غير ذلك .. قضية تحتاج إلى معالجة لأن لها آثارا تربوية خطيرة كانت في حياة الأمة .

(١) عولجت هذه القضية بنوع من التفصيل والاثافة؟ مع ربطها بقضية التجديد الحضاري في كتابنا : - الاجتهاد والتقليد (تحت الطبع)

مثلا : وصف أحد أدباء المسلمين الأمة في القرن الثالث - الجاحظ كان صاحب هذا الوصف واستعرناه منه - يقول : أمة قد أصبحت تحمل عقلية العوام ونفسية العبيد وطبيعة القطيع .. في الحقيقة هذا الوصف يصلح

لنا ، وقد وصف الجاحظ به الأمة في تلك الفترة . وهي أمة كانت لاتزال سيدة أمم الأرض والدولة الأولى في العالم ومع ذلك كان يقول أمتنا اليوم هي أمة تحمل عقلية العوام ونفسية العبيد وطبيعة القطيع .

هذه من أين جاءت ؟ جاءت من قضية التقليد . وقضية التقليد في البداية أجدادنا وأسلافنا أرادوها قضية اختيار للأمة مؤقت . ويريدون أن يستعينوا بطائفة من علماء الدنيا أو علماء سوء حولهم يعرفونهم بكل شئ فأرادت الأمة أن تدافع عن دينها فقالت : لا ، أي شئ لم يرد في الكتاب أو السنة ولم يرد في أقوال هؤلاء الأئمة الأربعة الذين يعتد بعلمهم ودينهم ودرعهم وتقاهم مرفوض .. يريدون أن يقفلوا الباب أمام وعاظ السلاطين بهذه الطريقة ما كانوا يريدونها قضية تصبح هي الشرع اللارم وتنسى آيات الكتاب وتنسى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ويأتي عالم من كبار علماء الحنفية في القرن الرابع الهجري أبو الحسن الكرخي ليقول : « كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا ، فأعلم أنه مؤول أو منسوخ » فأصبح الأصل هو المذهب الحنفي والفرع هو الكتاب والسنة ، كانت هذه قضية في غاية الخطورة وأزمة من أزمت العقل المسلم الحادة كيف تحولت القضية من أمر أريد به الاحتياط إلى أمر عادي وله آثاره النفسية والتربوية على هذه الأمة .

صور من الأزمة الفكرية : -

إنني أعتبر حقيقة أن الذي حول الأمة إلى قطيع يسوقه مرة حافر الجحش ويسوقه مرة ثانية هدام ، ويسوقه مرة ثالثة إمام هو مثل القضايا فخلفيتنا التربوية الثقافية هيأتنا لأن نكون بهذه الصورة أناسا مهزوزين أحد كبار فقهاءنا الإمام الماوردي رحمه الله وغفر لنا وله يقول : « وتجاوز إمامة الجور وتمضي أحكامها وتجاوز إمامة الجبر يعني المتغلب » ويقول « وتنعقد الإمامة ببيعة اثنين قياسا على عقد النكاح » وهو من كبار الفقهاء توفي سنة ٤٥٠هـ فحينما يكون تراثنا الفكري والفقهي فيه هذه الثغرات (الآن أي شخص يبايعه اثنان صار إماما قياسا على عقد النكاح أي من يتزوج حرمة كمن يحكم أمة !. ومشكلات الأمة اليوم حتما لها علاقة بهذه الأفكار ، هذه الأفكار هي التي كانت وراء تحول الأمة إلى قطيع فيحدث سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وتعلق تلك الرقاب وتصبح مآذن من جماجم والأنهار تسيل من دماء المسلمين .

هذا الفكر الميت الذي لا يستند إلى شيء من كتاب الله ولا إلى شيء من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الفكر الذي نجم عن مثل هذه القضايا لابد من معالجته ، المعالجة لابد أن تكون بعمليات جراحية يعني الآن كان أولادنا في الجامعات يأخذ موضوع رسالة مثلا حول الاجتهاد فتطلب منه أن يحلل ويدرس المسكين قد يبدأ في هذا وربما وجد من يوجه لكن هذا المسكين لا تجاز رسالته إلا إذا أخذت الشكل الوصفي البعيد عن التحليل . ودائما تسمعون في المناقشات التي تجري لرسائل الماجستير والدكتوراه في أي جامعة من جامعاتنا العربية والاسلامية يجرم الطالب إذا قال «الذي أراه كذا» من أنت حتى ترى ؟ كيف تقول والذي أرى ؟ ومن أين أتيت بها ؟ وكان المطلوب من الانسان أن يلغي عقله ورأيه . وإذا أتى بكلمة ولم ينسبها إلى مرجع قديم فهذه جريمة من الجرائم ويمكن أن ترد رسالته ويمكن أن يفعل بالباحث ما يفعل ، مطلوب دراسات ليست وصفية وإنما دراسات تحليلية نقدية تعيد طرح هذه القضايا ، تبين سلبياتها وآثارها والقضايا التي بنيت عليها والمشكلات التي انبثقت عنها لكي نستطيع أن نصحح مسار العقل المسلم .

قضية أخرى : -

ما مكانة الانسان بصفة عامة عندنا نحن المسلمين ؟ أنا قرأت عدة كتب من كتبنا عن حقوق الانسان ، قرأت جملة كبيرة من المقالات عن حقوق الانسان لكن في الحقيقة الاسلام هو أول من أوجد شيئا اسمه حقوق الانسان «ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر .. وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» ، الحضارة الغربية المعاصرة تعتبر الانسان مجرد مواد كيميائية يمكن تجميعها من أية صيدلية وتكلفك ٥ أو ٧ دولارات مع ذلك الانسان له حرمة ، له حقوقه ، له أشياء كثيرة جدا . عندما تصل إلى مطار وتلاحظ طريقة استقبال جندي المطار لك هنا : في أوروبا في أمريكا تلاحظ أن ضابط الجوازات - أحيانا امرأة - يقابلك كإنسان عادي مبتسم ، ليس لديه مشكلة معك لكن ادخل أي مطار لأي بلد اسلامي يأخذك الشرطي كأنك منهم يفترض فيك أنك تحمل متفجرات أو تحمل مخدرات . طبعا زوار الفجر وزوار العصر وزوار الليل غير موجودين إلا في بلادنا . رفعت من الخارطة ١٢٠ ألف سكانها انتهت ولم تعد بعد أن كانت مدينة موجودة بموقعها الجغرافي وحالات أخرى : قبل شهرين أو ثلاثة مدينة أهلها فقراء مدنيون دخلها جيش الحاكم فرجبت به ، يدخلها جيش عدوه ما يملكون أيضا إلا أن يرحبوا به فبلغ أنه لما

دخل جيش عدوه لم يقاوموه ، إذن هم يستحقون الموت والمدينة أبدت بكاملها ونحن نؤمن بحقوق الانسان ، وفي اسرائيل - والحق يقال - عندما ناقش شامير بعض القضايا ، قيل له ثورة الحجارة والنضال الفلسطيني لو كانت في البلاد العربية لحسابهم هذه لا يمكن أن تحدث في البلاد العربية ولو حدثت لانتهدت بيوم واحد ، هذه موجودة عندنا لأننا بلد ديمقراطي ونسمح للإنسان أن يعبر عما يريد . دعوا هذا الشئ يحصل في الدول العربية . سينتهي بعد ساعتين ، خرجت مظاهرة مرة ضد عبد الناصر في حلوان قصفت بالطائرات ، في العراق أو سوريا أو غيرها ليس هناك مجنون يمكن أن يفكر بمظاهرة ، عجلية أصبحت لا يمكن التفكير فيها إلا تأييدا للحكم ، أما التعبير عن أي شئ آخر فممنوع .

ما الذي أوصلنا إلى هذه الحالة ؟ قرآننا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم يؤكدان على مكانة الانسان وقيمه وحرمة ، حرمة عرضه غائبا أم حاضرا ، حرمة ماله . كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه . ومع ذلك لاقيمة للإنسان عندنا . ما الذي أوصلنا إلى هذا ؟ قضية المرأة ، مما نفخر به أن فلسفات الدنيا كلها قبل الاسلام لاتعتبر المرأة إلا إلهة أو شيطانا وليس هناك حل وسط . جاء الاسلام فاعترف لها بآدميتها وكرامتها وحقها في الحياة ، في البيع ، في الشراء ، في كل الأمور ، هي شقيقة الرجل ، وهما شقان لجسد واحد لبناء واحد . فلننظر إلى حالة المرأة في معظم بلداننا ، حالة سيئة جعلت المرأة عقل المرأة في كثير من بلداننا لا يرقى إلا للملحد والكافر والاشتراكي وللمنافق ، لأن المسلم اختلطت عنده التقاليد مع الدين وخرج بخلطة عجيبة وأصبح يستخرج أحكاما في هذه القضايا ، فلا ميمز فيها بينما هو من قبيل التقاليد وبينما هو من قبيل الدين ، فكانت النتيجة ما نرى . قضية تحتاج إلى حسم وعلاج . قال العلماء كذا وكذا خمسة أو عشرة أقوال والتناقض مستمر ، بين الأقدمين مثارة وبين المحدثين مثارة ، قضية تحتاج بالفعل إلى معالجة كاملة شاملة تعطي المسلم المعاصر تصورا ليخرج من هذا المأزق .

على طريق العلاج : -

إذن أزمة الفكر التي نعيشها أزمة حقيقية موجودة في جانب المصادر والمناهج ، جانب القضايا الأساسية التاريخية التي أحدثت أسوأ الآثار السلبية في عقليتنا ، في نفسيتنا ، في طريقة تفكيرنا ، والتي أحبطت محاولات

إصلاح كثيرة جدا . محاولات الإصلاح في تاريخ هذه الأمة كثيرة جدا ومعظمها محاولات مخرجة ناجحة ، لكن كثيرا ما تأتي هذه القضايا في وسط الطريق ، لأنها «خُراج» ، فينفجر ، فإذا به يمزق أية حركة إصلاحية ، أو يحبطها ، أو يصادرها قبل الوصول إلى نتيجة . فنحن إذن في قضية الفكر بالذات محتاجون إلى وضع مناهج للفكر السليم بعيدا عن الشخصية الفكرية الغربية أو سيطرتها ، معالجة معضلاتنا أو مشكلاتنا الفكرية بالنسبة كما هو مطروح حاليا . نعتقد أن لنا شخصيتنا المميزة في هذا المجال . وأن هناك قضايا مشتركة بيننا وبين بقية البشر ، فلا بد أيضا من تحديد القضايا المشتركة والقضايا ذات الطبيعة الخاصة . فمثلا جميع العلوم والقضايا الفكرية المتعلقة في موضوعات العلوم الطبيعية وظواهرها والمادة وخصائصها هي من قبيل الفكر المشترك بيننا وبين الناس الآخرين ، مناهجها تتميز بالحياد العلمي ؛ لأنها قائمة على التجربة الملموسة بالحياة المادية . وهذه التجربة الملموسة والحياة المادية ، أنت لك عينان والغربي له عينان ، لك أذنان وله أذنان ، لك دماغ وله دماغ ، الحياة لا تختلف ووظائفها مشتركة وقدراتها مشتركة لذلك ، فالحقائق المادية مثل الدليل التجريبي الحسي ، والحياة لا تختلف والتجارب لا تختلف من الممكن أن يقوم بها هذا الإنسان أو ذاك ، ومن ثم فهي لا تتغير بتغير القوميات والأديان والحضارات والمذاهب ويمكن الاستفادة من كل ما وصلت إليه البشرية في هذا المجال فهي واحدة على المستوى الإنساني وموضوعاتها المادة وظواهرها كذلك لا تتغير باختلاف الأفكار والأديان والحضارات ، فعلوم الرياضيات بفروعها ، الكيمياء الطبيعية ، الطب ، الجيولوجيا ، لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الأديان . يلتحق بهذه المنظومة من حقائق العلوم الطبيعية الخاصة بدراسة المادة وظواهرها العديد من ثمرات التجارب الإنسانية في الوسائل في النظم والمؤسسات والخبرات ، ترشد الأداء الإنساني وهو يسعى إلى تحقيق الغايات . فعلى الرغم من تمايز غاياتنا لمسلمين ومقاصدنا عن غايات ومقاصد الآخرين ، لكن التجارب الإنسانية في الوسائل والنظم والمؤسسات كثيرا ما تكون صالحة ممكنة الاقتباس ، مع شيء من التطور والتمثل والاستلهام . مثلا هذه المؤسسات الموجودة في الغرب لرقابة الدولة ، المؤسسة البرلمانية على سبيل المثال ، مؤسسة جيدة توفر نوعا من الرقابة ، لكن لا أريد فيها تطبيق الديمقراطية ، وإنما أريد أن تكون مؤسسة لتطبيق الشريعة ومراقبة تطبيق الشريعة مراقبة الحاكم في تطبيق الشريعة . الصورة بالنسبة لي أمر غير ديمقراطي الصورة التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بها ، هو أن نتشاور

جميعا من أجل الوصول إلى الرأي الأصوب فيما تشاورنا فيه ،
الديمقراطية الغربية عملية صراع بين الأقلية والأكثرية بين رجال
الكونغرس والنواب بين الحكم والمعارضة من أجل دعم قرار معين .
كلما كثرت الأصوات لصالح قرار معين كلما أخذ ذلك القرار ، فكأن
هنا عملية صراع لاتخاذ قرار لصالح مجموعة من هؤلاء . بالنسبة لي
الشورى عندي هي عملية حوار وتعاون من أجل الوصول إلى الحق
والصواب والأفضل ، فكل هؤلاء يتعاونون معا في حوارهم ، المعارضة
والحكم ، هذا الحزب وذلك من أجل الوصول إلى ما هو أفضل . هذا
شئ مغاير لكن المؤسسة نفسها هل أقول كما تقول بعض الفئات الاسلامية
أنه لايجوز الانتقاص من سلطة الحاكم الفرد ، الخليفة يجب أن نعطيه كل
الصلاحيات وأن نحاسبه على كل الأمور . من يحاسبه إذا أعطيته أنت
جميع الصلاحيات - كما هو الأمر في كثير من بلداننا الاسلامية - فمن
الذي يحاسبه ؟ ولكن الفلسفة التي وراء المؤسسة طريقة استخدام المؤسسة
لدى فيه توجيه قرآني ، لكن المؤسسة نفسها وطريقة الوصول إليها
الانتخاب المباشر أو غير المباشر تجارب إنسانية - يمكن أن أدرسها
وأحددها وأن أستفيد منها ، دون أن أعتبر مغامرا أو تابعا فإذن العلوم
الطبيعية والمادية والتقنية والتطبيقية أحتاج فيها فقط إلى التوجيه .
مطلوب أن توجه هذه العلوم وجهة اسلامية في أهدافها وغاياتها ومقاصدها
، فحين أحقق التقدم العلمي أحققه على أساس أنني لأريد علوا في
الأرض ولا فسادا . الحضارة المعاصرة حققت تقدما لإرادة العلو في
الأرض والفساد فالقوى الكبرى تطلع الآن تذهب إلى القمر وتجري تجارب
، كل هذه الأشياء من أجل العلو في الأرض ومن أجل الفساد ، تصنع
الأسلحة الكيماوية والجرثومية وغيرها . أنا بالنسبة لي يجب أن أعني
بكل هذه العلوم ، ولكن ينبغي أن أكون محكوما بهذه الضوابط العامة .
لا أبتغي العلو في الأرض ولا أسمح لأحد أن يكون جبارا ولا أبتغي
الفساد في الأرض في كل صناعة أو زراعة ، واحد يريد أن يزرع أفيون
أقول له هذا ممنوع . سيقول : لماذا ؟ هذه زراعة والله أباحها لنا .
نعم ولكن هذه الزراعة ستؤدي إلى الفساد ز تزرع الأوراق الطبية مثلا في
رعاية خاصة ، إذن بالنسبة لهذه العلوم مطلوب إيجاد هذا الاتجاه ،
بالنسبة للمؤسسات مطلوب اقتباس المنافع منها ووضع وحفظه بإطار
الاسلام .

لكن هناك قضايا أخرى أساسية خطيرة جدا ، وهي هذه التي يسميها الغرب
بالعلوم الانسانية والاجتماعية ، فهذه بيت الداء . هذه العلوم الانسانية

جميعا من أجل الوصول إلى الرأي الأصوب فيما تشاورنا فيه ،
الديمقراطية الغربية عملية صراع بين الأقلية والأكثرية بين رجال
الكونغرس والنواب بين الحكم والمعارضة من أجل دعم قرار معين .
كلما كثرت الأصوات لصالح قرار معين كلما أخذ ذلك القرار ، فكان
هنا عملية صراع لاتخاذ قرار لصالح مجموعة من هؤلاء . بالنسبة لي
الشورى عندي هي عملية حوار وتعاون من أجل الوصول إلى الحق
والصواب والأفضل ، فكل هؤلاء يتعاونون معا في حوارهم ، المعارضة
والحكم ، هذا الحزب وذلك من أجل الوصول إلى ما هو أفضل . هذا
شئ مغاير لكن المؤسسة نفسها هل أقول كما تقول بعض الفئات الاسلامية
أنه لايجوز الانتقاص من سلطة الحاكم الفرد ، الخليفة يجب أن نعطيهِ كل
الصلاحيات وأن نحاسبه على كل الأمور . من يحاسبه إذا أعطيته أنت
جميع الصلاحيات - كما هو الأمر في كثير من بلداننا الاسلامية - فمن
الذي يحاسبه ؟ ولكن الفلسفة التي وراء المؤسسة طريقة استخدام المؤسسة
لدى فيه توجيه قرآني ، لكن المؤسسة نفسها وطريقة الوصول إليها
الانتخاب المباشر أو غير المباشر تجارب إنسانية - يمكن أن أدرسها
وأحددها وأن أستفيد منها ، دون أن أعتبر مغامرا أو تابعا فإذن العلوم
الطبيعية والمادية والتقنية والتطبيقية أحتاج فيها فقط إلى التوجيه .
مطلوب أن توجه هذه العلوم وجهة اسلامية في أهدافها وغاياتها ومقاصدها
، فحين أحقق التقدم العلمي أحققه على أساس أنني لأريد علوا في
الأرض ولا فسادا . الحضارة المعاصرة حققت تقدما لإرادة العلو في
الأرض والفساد فالقوى الكبرى تطلع الآن تذهب إلى القمر وتجري تجارب
، كل هذه الأشياء من أجل العلو في الأرض ومن أجل الفساد ، تصنع
الأسلحة الكيماوية والجرثومية وغيرها . أنا بالنسبة لي يجب أن أعطني
بكل هذه العلوم ، ولكن ينبغي أن أكون محكوما بهذه الضوابط العامة .
لا أبتغي العلو في الأرض ولا أسمح لأحد أن يكون جبارا ولا أبتغي
الفساد في الأرض في كل صناعة أو زراعة ، واحد يريد أن يزرع أفيون
أقول له هذا ممنوع . سيقول : لماذا ؟ هذه زراعة والله أباحها لنا .
نعم ولكن هذه الزراعة ستؤدي إلى الفساد ز تزرع الأوراق الطبية مثلا في
رعاية خاصة ، إذن بالنسبة لهذه العلوم مطلوب إيجاد هذا الاتجاه ،
بالنسبة للمؤسسات مطلوب اقتباس المنافع منها ووضعها وحفظه بإطار
الاسلام .

لكن هناك قضايا أخرى أساسية خطيرة جدا ، وهي هذه التي يسميها الغرب
بالعلوم الانسانية والاجتماعية ، فهذه بيت الداء . هذه العلوم الانسانية

والاجتماعية موضوعها وهدفها الانسان ، وتختلف المدارس والأديان والحضارات فيها ، فلكل مذهب أو حضارة أو ثقافة أو دين فكرته الكلية عن الكون والحياة والانسان ، فكرته الكلية عن الانسان وغاية وجوده وطبيعة هذا الوجود والأخلاق التي ينبغي أن تسود والنظم والعلاقات التي ينبغي أن تكون ، العلوم والثقافات والفنون التي ينبغي أن تصل إليه أو لاتصل ، كل هذه الأمور هي موضوعات العلوم الانسانية والاجتماعية . هذه العلوم كما قلنا تختلف عن علوم المادة وتختلف عن قضايا المؤسسات ، ليست مشتركا عالميا وإنما تتمايز فيها الأديان والمذاهب ، ربما نجد في بعض مناهجها نوعا من المشترك الانساني ، فإذا تتبعنا قضية الاستقرار في البحث ، ودراسة الوسائل ، كيف نعرف ما هو صعب أو سهل ، ما هو ضار أو نافع ، ما هو مصلحة أو مفسدة . ربما بالنسبة للمناهج يمكن أن نجد مشتركا إنسانيا بيننا وبين الحضارات الأخرى ، ولكن بالنسبة لتصور الانسان لتصور الحياة لتصور الغايات والأهداف تختلف الأديان تماما .

أن العالم المسلم حيث يدرس الهندسة أو الطب لا يجد مشكلة في التوفيق بين الفكر الطبي أو الهندسي وبين الوسائل . لكن حينما يدرس الفلسفة الغربية التي وصلت إلى حد أن جعلت الانسان إلها في هذا الوجود وجعلت الله سبحانه وتعالى دون مرتبة الانسان فيجب على الله رعاية المصلحة ، ويجب على الله أن يغفر ، ويجب على الله أن يعطي كل الأشياء ويجب أن يقبل الخطايا ويسامح ، ولكن ليس له أن يحلل الربا في المجال الاقتصادي ، كل الحدود الانسان يتعدها ولكن ليس لله سبحانه وتعالى أن يدخله النار . ولكن الله يدخل النار إذا فعلت ، هذا تهديد للانسان ولحرته ، كل ما يحتاج إليه أن يذهب بجسده في زيارة لكنيسة وتسوي العلاقات بينه وبين الله .

إنني أشمئز حيث أسمع أو أقرأ عن الفنون الغربية التي اعتمدت العري واعتبرت أن قيم الجمال كلها تتعلق بالرجل العاري والمرأة العارية ، وتمائيل العري تملأ الساحات والميادين . أنا أشمئز من هذا ، لأنني انسان مسلم ابن حضارة عرفت الستر ، إن انحدرت من الفراعنة فكانوا حتى الفراعنة في مختلف ظروفهم يضعون لهم غطاء ، وإن انحدرت من البابليين أيضا كان عندي حضارات مستورة إلى حد ما ، فعن أية جهة انحدرت . من أي مكان نشأت أجد أن العري عندي لم يكن أمرا مقصورا . العري عندي إهانة للإنسان بينما العري عنده كرامة ، كذلك

فأنا أنفر فيه فنونه وفيه آدابه ولا أجد هذه الألفة التي أجدها في العلوم التطبيقية والتقنية التي أفرزتها حضارته وعقله ، لا أجد هذه الألفة بيني وبين العلوم الاجتماعية والفنون والآداب والعلوم الانسانية يجب أن تكون من قبيل الصناعات المحلية .

سأنتقل إلى قضية المعرفة في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية . هذه العلوم موضوعها الانسان فردا ومجتمعاً ودولة وثقافة الانسان ونفسيته وعقليته وكل منهما يخدم جانبا من هذه الجوانب . أن أول شئ يفعله أن نقضي على خرافة أن القرآن الكريم والسنة النبوية مصدران فقط للحكم الشرعي حلال أو حرام . هذه نعتبرها حقيقة خرافة وقضية خطيرة أصابت العقل المسلم في وقت مبكر فجعلته يلغي حوالي ٦ آلاف آية من آيات القرآن الكريم ويتشبت بجملة آيات محدودة هي الآيات المتعلقة بقضايا الحلال والحرام فقط . نحن نريد أن يتحول القرآن الكريم إلى مصدر ثقافة ومعرفة كما مصدر للحكم الشرعي . الفقهاء قالوا آيات الأحكام ٣٤٠ آية ، وبعضهم قال ٥٠٠ آية هي مجموع آيات الأحكام وقالوا أن أحاديث الأحكام تتراوح بين ٥٠٠ - ١١٠٠ أو ١٢٠٠ .

نحن نريد أن نقول نعم لكل هذا ، ولكن لدينا قضايا أخرى هي القضايا التي عرفت بالعلوم الانسانية والاجتماعية ، القرآن الكريم تناولها وبحثها ووجه إليها ولا بد أن نكتشف هداية القرآن الكريم في هذه المجالات . علم النفس يدرس الانسان ، علم النفس يدرس النفس الانسانية . علم الاجتماع يدرس المجتمع وقضايا ومشكلاته . هذه الأمور تعرض لها القرآن الكريم والسنة للأحكام فقط وإنما مصادر للثقافة والفكر والمعرفة والحضارة يرجع إليها كل مسلم ولا يمر يوم مع مسلم مهما كان تخصصه إلا ويتعامل مع آية أو حديث ؟ من أجل أن نفعل هذا يجب أن نعيد قراءة القرآن الكريم وما صح من السنة النبوية المطهرة ، ونقوم بعملية تصنيفها وتوزيعها على قضايا العلوم الانسانية والاجتماعية . لنكتشف توجيهاتها وأحكامها . كثير منها قد اختلط بعلم الفقه في تاريخنا «نحتاج إلى إعادة درس وتصنيف ، وبعضها لم يلتفت إليه أئمتنا من قبل علينا أن نكتشفه وكما وضع الفقهاء والأصوليون مناهج الاجتهاد للوصول إلى الحكم الشرعي لا بد أن نضع منهاجاً للتعامل مع الكتاب والسنة في مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية لتتوصل من خلاله إلى كيفية استخدام الكتاب والسنة في هذه المجالات .

(٢) لا بد من الاطلاع على كل محاولتنا التراثية في مجالات وقضايا هذه العلوم الانسانية والاجتماعية : -

لأن بيننا إخوة متخصصون في التربية ، إخوة متخصصون في الإعلام . في علم النفس .. عندي شاب جاء يعمل معنا كمساعد ، منذ يومين قدمت له كتاباً من كتب فخر الدين الرازي ، والشاب تخصصه علم نفس وقد درس في أمريكا . هذا الشاب لم يعرف يوماً أن المسلمين يعرفون شيئاً يسمى علم نفس ، فأعطيته كتاباً يسمى حتى علم النفس علم نفس ، فجاءني وقال : أنا أستغرب ، فكل الذي قرأته في الجامعة ناقص وحتى المصطلحات مخيفة فهل صحيح أن هذا الكتاب موجود من سنة ٦٠٦ هـ ، فقلت نعلم هذا العالم توفي سنة ٦٠٦ هـ . فهذا الكتاب موجود قبل أن يخرج فرويد وعلماء مدارس علم النفس المختلفة بقرون . هذا أحد أبناء المسلمين - على سبيل المثال - لا يعرف أن القرآن الكريم والسنة والتراث يمكن أن تكون مرجعاً له ، ولذلك يتحول إلى أستاذ علم النفس وإلى طبيب نفسي ، ولكنه في كل منطلقاته ومناهجه يتعامل من خلال المفهوم الغربي والرؤية الغربية والفلسفة الغربية . فإن المطلوب أن توجد مشاريع لتيسير اطلاع المتخصصين في هذه المجالات على ما لدينا في التراث الاسلامي وتصنيفه ونقده وغربلته ، ودراسة ما فيه مما يتعلق هذه

القضية ويعالجها .

(٣) لابد من دراسة التراث المعاصر :

هذا الذي يسمى بالتراث الغربي تراث انساني ، كل البشرية قد أسهمت فيه وهم قد استفادوا من كتب أسلافنا كثيرا . وتمثلوها وعرضوها من رؤيتهم ومنظورهم . لابد أن ندرسها ولكن بغير الطريقة التي ندرسها بها حاليا . لابد أن ندرسها دراسة ناقدة فاحصة ومعنا مقاييس الكتاب وموازين السنة النبوية المطهرة ، ومزودون بما في تراثنا من رؤية في هذه المجالات . ندرسها دراسة نقدية واعية فاحصة تمكننا من غربلتها .. ومن التمييز بين غثها وسمينها وصالحها وفاسدها ونافعها وضارها وتمثل المفيد الصالح منها بعد ذلك من أجل الوصول إلى منهجيته في التعامل .
(١)

(١) انظر في هذا بحثنا :- الأزمة الفكرية مقترح وعلاج . انظر أيضا : المعهد العالمي للفكر الاسلامي ، إسلامية المعرفة : المبادئ العامة - خطة العمل - الانجازات ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ، ص ٢٣ وما بعدها .

تحديد علة الأمة وحقيقة الشهود الحضاري :

تشخيص علة الأمة التشخيص السليم أول الطريق للشفاء ومعرفة عوامل الأزمة لا الاقتصار على التعامل مع أعراضها ، خطوة أخرى نحو تحديد علة الأمة التحديد السليم الذي يمكن من وصف الدواء للداء

وتكوين الوعي هو أول سبل الوقاية أو التعامل مع العلة ، والوعي بحقيقة الأزمة وطبيعتها ، والتأكيد على بعدها الفكري والحضاري والوعي بالذات والموقف يفرض حقيقة رؤية متميزة للتراث ورؤية نقدية للحضارة الغربية أسسها ومقوماتها الفكرية .

إن معرفة تشعب الأزمة الحضارية وطبيعة المأزق الحضاري الذي يعي أنه في طبيعته عالمي من حيث ارتباطه بالمسلمين في الجوهر والأساس وارتباطه بالحضارة الغربية في العرض والفرع إنما يلقي على المسلمين المسئولية الأكبر عن هذا المأزق ، كما يفرض عليهم ألا يقفوا عند حدود تشخيص الأزمة بل عليهم أن يتعدوا ذلك نحو صياغة متميزة محددة لنموذج الشهود الحضاري الذي يجب على الأمة أن تتعامل به لحفظ هديتها ولتحقيق الخير

لنفسها ولغيرها ، وهذا التحدي المركب يشكل تحديا حقيقيا لعلماء الأمة ، إن من حيث قدرتهم على الاجتهاد المنضبط بشروطه وقواعده ، وإن من حيث استعدادهم إلى العمل والاجتهاد بروح الفريق ، إذ العالم للعالم كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ذلك أنه يجب أن نلاحظ أن تحقيق الشهود الحضاري نظرا وعملا ، فكرا وحركة ليتجاوز الأزمة الحضارية المعاصرة لا يتأتى من فراغ ولا تحذره الأمانى والركون إلى ما لدينا ، والافتخار بماضينا والوقوف عند حدوده ولكنه يتأتى بالفعل الحضاري المستمر (فكرا وحركة) وما يتطلبه من إمكانيات وقدرات يجب استثمارها وإرادة التحدي لأية معوقات في طريق هذا الفعل الحضاري .

وعلى هذا الشهود أن يعي أن عقم البدائل الحضارية لقيادة الانسانية نحو الخروج من أزمة الحضارة المعاصرة ، تعني ضرورة تقديم طرح حضاري واع في تفكيره ، أصيل في جذوره وأساسه ، قادر على مواجهة التحديات الفكرية المتراكمة والمتنوعة التي أفرزتها تلك الحضارة ، وتلك البدائل الأخرى ، طرح حضاري نوعي وكيفي لا يحاول أن يقدم كم هائل من الكتابات في الموضوع بشكل متسرع وسطحي ولكنه طرح متنوع ومتعمق يقدم أفكار رئيسية بديلة وقواعد فكرية أصيلة تشكل منظومة معرفية متكاملة البنيان لفهم قضية الحضارة برقتها ، لأن الاهتمام بمعيارا لكن سيجعلنا في مؤخرة تلك الكتابات عن قضية الحضارة ، نظرا لما تعيشه هذه الحضارة من انفجار معرفي ، ومن توالي الكتابات عن الحضارة في الفكر الغربي وتعدد المدارس الفكرية ، ومن ثم فإن هذا الطرح إن لم يكن نوعيا متعمقا وأصيلا لن يحتل مكانا على الساحة الفكرية المتخمة بالأطروحات الحضارية ذلك أن السباق مع الفكر الغربي ليس من هذا النوع الكمي ، ذلك أن قدرات الأمة وبوضعها الحالي ليست مؤهلة لدخول هذا السياق على أي مستوى ، ولكن سياقها في الحقيقة سياقاً نوعياً يستطيع مزاحمة تلك المدارس الغربية المتعددة يقدم النقد الواعي لها ، المستوعب والمتمثل له مسبقا .

وهذا الطرح النوعي المتعمق يملك أهم مقوماته وهو افتقار هذه الساحة إلى نوعية متكاملة من تلك الأطروحات ، عجزت أي مدرسة فكرية داخل الحضارة الغربية على أن تعبر عنه بدقة أو بشكل محدد ، أو عبرت عنه بشكل مقترن وجزئي ، هذا من ناحية ، كما أنه يعني من ناحية أخرى

أن الشهود الحضاري المسلم قد دانتها الفرصة ليعود من جديد إلى دوره التيارات خاصة وأن ذلك ال؟ في أطروحات البدائل الحضارية ، لإبراء له ، إذ تستند تلك البدائل في مبناها وتأسيسها على حضارة مأزومة في قيمها الأساسية فكان لزاما أن تنعكس هذه الأزمة القيمية على فكرها ونظمها وحركتها وبالقطع بدائلها ، وهو ما تت؟ عليه مقومات الشهود الحضاري المسلم إذا ما أحسن استثمارها والوعي بها .

خطة حل الأزمة الفكرية : -

يحدد الناس مواقعهم من سائر قضايا الحياة من خلال الفكر والمعرفة والثقافة ، ولن يتضح الطريق إلى البديل الثقافي باتجاه الاسلام قبل أن تحسم وتحل الأزمة الفكرية لدى المسلمين . وإنه لأمر خطير أن توضع الجماهير المسلمة أمام خيارين لا ثالث لهما : إما الاستبداد والفقر ورفض الحضارة بدعوى صون الاسلام ، وإما الحرية والغنى والعدل في ظل منهج غير اسلامي ، كان الاسلام عاجز عن الجمع بين الحسنين ، وكان تحقيق هذه القيم الأساسية ليس للإسلام بها شأن أوله تصور خاص بها وكذلك فإن تأييد الحضارة وتح؟ ووعيها لايعني الوقوف موقف الرافعة لما يسمى الآن بالحضارة .

المراجعة الفكرية الشاملة وإصلاح مناهج الفكر : -

لابد لنا من معرفة مواقع الفكر الاقليمي والقومي والغربي بشقيه الماركسي والليبرالي ومدى عمق جذوره في عالمنا الاسلامي ، ذلك من معرفة الخريطة الفكرية والثقافية مقدمة ، تمكن قوى التغيير الاسلامي من معالجة التراكمات السابقة ومعرفة حجم التحدي الذي نواجهه ، ولابد من مراجعة فكرية شاملة متحررة من كل الضغوط النفسية والتاريخية ، لإعادة تقديم الفكر الاسلامي إلى الأمة كفكر إيجابي مؤثر بناء واستبعاد القضايا التي شغلت العقل المسلم في الماضي .

المراجع السليم والواعي يحتاج - في نظرنا - إلى المرور بالمراحل التالية :

- (١) نرحلة المراجعة الشاملة بقصد التصحيح والنقد الذاتي ثم الانطلاق إلى البناء الفكري المطلوب ، وفق قواعد سليمة .
- (٢) مرحلة المراجعة والتصحيح في البناء الثقافي ، وتنقية التراث من كل ما

- يعوق عملية الإصلاح أو يشل فاعليتها .
- (٣) مرحلة تعميم المفاهيم الصحيحة ونشرها وتربية الأمة عليها كجزء أساسي من ثقافتها .
- (٤) مرحلة بناء وتصميم التنظيم الاجتماعي الاسلامي من حيث التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولا بد من إصلاح مناهج الفكر الاسلامي وتجديد بناء الثقافة الاسلامية من خلال برامج اسلامية بالمعرفة وتحرير العقل المسلم وإعطائه فرصة الإبداع لإيجاد التغيير الحضاري الكامل والمنشود وفق أصول الشرع ومقاصده .

بلورة منهجية جديدة : لابد للخروج من الأزمة - من بلورة منهجية جديدة تقوم على ما يلي :-

- (١) تحقق تصور حضاري إسلامي يمكن من بناء أمة قوية متماسكة تقوم على احترام الانسان كخليفة الله في الأرض .
- (٢) تحويل ذلك التصور إلى نسق ثقافي يمكن تقديمه لسائر الأمة بشكل يحقق مناعتها به .
- (٣) العمل على تربية الأمة وفقا لذلك النسق الثقافي الذي يعيد بناء كيان الانسان ونظرتة إلى الكون والحياة .
- (٤) تصور مجموعة من المؤسسات الحضارية القادرة على حماية ذلك النسق الثقافي واقتراح مجموعة الوسائل التربوية القادرة على تجديد الذات باستمرار .

خلاصة القول : - إن تحقيق التصور الحضاري الاسلامي يبدأ بدراسات عميقة في قضايا الفكر ومناهج إصلاحه وينتهي بإسلامية المعرفة وطرح البديل الثقافي المتكامل وذلك بالعودة الواعية للتعامل مع الكتاب والسنة . كذلك يحتاج إلى جملة الجهود المكثفة في مجال تيسير التراث ثم نقده وتمييزه ليصبح عامل دفع إلى الأمام بحيث يشكل قوة أساسية في بناء هذا التصور الحضاري بدلا من ممارسة ضغوطه على واقع المسلمين بما يضيف أزمات جديدة للأزمة الكلية .

رؤية حضارية متكاملة :-

لابد للإسلاميين من طرح رؤية حضارية متكاملة حتى تستمر مظاهر الصحة والعودة الجماهيرية إلى الإسلام إذ أن هذه الرؤية تعالج مشكلات

الأمة القائمة بكل أنواعها وتضع الأمة على أول طريق التقدم والحضارة بما يمكنها من الاستجابة لسائر التحديات .

مواصفات الحضارة : -

إن الاسلاميين مطالبون اليوم بتحديد طبيعة الحضارة المراد قيامها ، وبيان عناصر مستقبلها وقوانين حركتها ، وتمييز ما هو جوهرى أساسى فى بناء الحضارات وما هو عرضى أو ثانوى . ولا بد من معرفة كيفية تحقق الاستخلاف الإلهى فى الأرض وذلك أن مواجهة عوامل التفكك والتحلل التى تعم العالم الإسلامى بجرأة وواقعية ومن ثم التزام أسس مواجهة التحدى الحضارى والتعرف على القوى الفاعلة وأهدافها يضع قدم الأمة على الطريق الصحيحة لاستعادة موقعها ومكانتها فى العالم .

إعادة طرح القيم : -

إن إعادة طرح الأفكار والمفاهيم والقيم والنظم المختلفة بشكل يحقق ضمان صلاحيتها وفعاليتها ليس أفضل الحلول فحسب ، بل إنه الحل الأولى لسائر مشكلات الأمة .

اتباع منهجية السلف : -

إن على قوى التغيير الإسلامى اتباع أسس منهجية الصدر الأول والسلف الصالح لهذه الأمة حتى تفلح فى إخراجها من أزمتها وذلك مع تقدير البعد الزمانى والمكاني بحيث تحصر التصرفات فى المنطلق نفسه الذى كان يوجه حياة ذلك الجيل . وقد يفرض علينا استخدام وسائل مخالفة لتلك التى عول عليها ذلك الجيل ولكننا نضع نصب أعيننا أن الأهداف النبيلة لا تحقق إلا بالوسائل الشريفة كما أنه لا بد من استعادة المظلة التى كان رجال الصدر الأول يستظلون بها فى عملية الربط العقلى المحكم بين النصوص والوقائع عن فهم واع وفقه سليم .

وضوح مفهوم صلاحية الشريعة : -

إن قدرة الشريعة الإسلامية على تلبية سائر الاحتياجات لحياة البشرية أمر مسلم به ولا يقبل الجدل ولا يقتصر الأمر على الاحتياجات التشريعية فقط

كما يقول الاسلاميون في طروحاتهم ولكن المطلوب هو الصلاحية القادرة على تحقيق النهضة وبناء الحضارة من جديد ، وهذا يقتضي وجود منهجية سليمة ومنطق فكري سليم وعقلية بناءة وشروط ثقافية كاملة . ثم تأتي قضية التقنين الفقهي لتضع الضوابط والقيود التي تحمي الحقوق وتحدد الواجبات والمسئوليات وتصور الضروريات .

تحديد المواقف : -

لقد أصبح الفكر خاضعا للممارسات السياسية والاجتماعية ، تتحكم فيه بدلا من سيطرته عليها ، وذلك بسبب مناهج الفكر وقضاياها التي تتسم بالجدل العقيدي والمذهبي ، والجدل حول أحداث الواقع التاريخي والانشغال في رد تهجم الخصوم اليومي على الأمة الاسلامية ، متخذة في ذلك موقفا دفاعيا تجزئيا ومجزأ ، ذلك أن كثيرا من التساؤلات تدور الآن في أذهان أبناء الأمة وكثيرا من الجدل يتردد الآن : هل الوصول إلى السلطة هو الخطوة الأولى للإصلاح ، أم الفكر والثقافة والتربية هي نقطة البداية ؟ .. وهل الأزمة الآن هي أزمة إيمان أم هي أزمة حدود وتطبيق أحكام ؟ وهل علينا أن نقطع صلتنا بالسياسات القائمة في البلدان الاسلامية بعد اقتناعنا أنه لا يرجى منها خير ، أم علينا الخوض في بعضها فنجنني بعض الثمار دون أن تدمي الأشواك أيدينا ؟ إن على قوى التغيير الاسلامي أن تحدد مواقفها من كل هذه السياسات التي تعج بها الساحة الاسلامية حتى تتمكن من التحرك على بيئة من أمرها وتحاشي مثل هذا النوع من القضايا ومعالجتها بصورة منهجية أمرا يضيف إلى أزمة الأمة أبعادا جديدة .

استبعاد النظرة الجزئية : -

لعل أكبر عائق يحول دون تقديم الشريعة الاسلامية بالصورة المثلى هو النظر الجزئي إلى المنهج الاسلامي لدى كثير من حملة الفقه والدعاة ، وكذلك التشبث بالمنهج الاستنباطي من النصوص بمناهج التجريب والاستقراء . إن الأصوليين القدماء قد بينوا الأركان الأربعة للحكم الشرعي وهي : - الحاكم ، والمحكوم عليه ، والمحكوم به ، ثم المحكوم فيه . وتعرضوا لعوارض الأهلية ، أما في الوقت الحاضر ، فإن الحكم الشرعي يقدم بمعزل عن تلك العوامل ، فإذا أحس الملم بالعجز عن التطبيق لعجزه عن تصوره ، رفض هذا الحكم ، وإذا رفض الحكم ، دب

النزاع .

الانكفاء التاريخي : -

لابد لقوى التغيير الاسلامي أن تخرج نفسها من آفاقها الضيقة التي تعيشها ، حتى تستطيع أن تتلمس الطريق وتضع أقدامها حيث يجب أن يبدأ منه الانطلاق . إن الطرح التاريخي لحل المشكلات المعاصرة لم يعد مقبولا أو مجديا ، كما أنه يفتقد المنهجية ، ذلك إن الاقتصار على التوجه نحو الماضي والتاريخ لن يجدي فتيلًا إذا لم يقترن بتحليل دقيق وبناء للفكر والأسس المعرفية التي حققت تلك الإنجازات التاريخية ، وبذلك تستطيع قوى التغيير الاسلامي الاحتفاظ برصيد المشاعر المتصاعدة التي عادت تنشذ للحلول لمشكلاتها من المنطلقات الاسلامية .

كسب ثقة الجماهير : -

إن الأحكام الشرعية لم تكن في عهد الصدر الأول ، ولا ينبغي أن تكون في أي وقت ، مجرد فتاوي تفرضها السلطات العليا على الناس ، بل كانت وفق تفهم حقيقة وظيفتها جزءا من إيمان و يقين الجماعة بأنها سباج لأمنها وعنصر جوهري في بناء حضارتها . ولو طبقت هذه الأحكام في زماننا هذا بدون إيجاد الظروف العصرية الملائمة لما أعطت النتائج التي أعطتها تاريخيا . إن على الاسلاميين أن يقدموا هذه الشريعة من خلال قيمها المتكاملة ، ودون المساس بالأصول والثوابت فيها ، إلى مئات الملايين من المسلمين الذين يحبون شريعة الله ، ويؤثرونها على تطبيق أي نظام وضعي من صنع البشر . إن استعادة ثقة جماهير الأمة بأهلية الاسلام هي مهمة قوى التغيير الاسلامي ، ذلك أن عليها تقديم الاسلام بالصورة التي تقنع الأمة بأنه قاعدتها ووسيلتها للحركة باتجاه البقاء والحضارة والعمارة والإصلاح .

الخطوات العملية : -

لقد أصاب التغيير خارطة القوى الاجتماعية في جميع أنحاء العالم الاسلامي منذ انهيار دولة الخلافة العثمانية ولم يعد من الممكن بيسر إقناع الناس بصلاحية الاسلام للخروج بالأمة مما تعانيه ، من خلال مخاطبة المشاعر ، أو من خلال الحوار العقلي المجرد ، بل لابد من

اتخاذ المواقف وعرض الطروحات في مواجهة القوى التنظيمية والإقليمية والقومية والحركية والحزبية ، مما سيرغم كافة تلك القوى على التخلي عن موقعها لقوى التغيير الاسلامي وأفكارها أو عليها أن طلبت البقاء أن تتبنى مجمل هذه الأفكار .

(٨) الشهود الحضاري نموذج مقترح : -

أولا المفهوم الأساسي للدراسة : الشهود الحضاري : -

تداول كتابات كثيرة مفهوم البديل الحضاري وتقتصر على الإسلام باعتباره أحد البدائل الحضارية ، وشيوع المفهوم جعل استخدامه أمرا مفروغا منه ، إلا أنه عندما طرح التفكير بهذا الموضوع ، كان أهم تساؤل حول مفهوم «البديل الحضاري» وإمكان الاستناد إليه في ورقة من هذا النوع .

وظل هناك رأيين أحدهما لا يرى بأسا في استخدام مفهوم «البديل الحضاري» استنادا إلى مفهوم الإبدال القرآني الذي يقع على إصلاح بعد فساد ، أو إصلاح ما فسد (١) .

(١) يقول الراغب في مفرداته : «الإبدال والتبديل والتبدل والاستبدال جعل شئ مكان آخر وهو أعم من العوض ، فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول . والتبديل قد يقال للتغيير مطلقا وإن لم يأت ببدله ، قال تعالى : «فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم» ، «وليبلونهم من بعد خوفهم أمنا» وقال تعالى «فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» قيل هو أن يعملوا أعمالا صالحة تُبطل ما قدموه من الإساءة ، وقيل هو أن يعفو تعالى عن سيئاتهم ويحتسب بحسناتهم ، وقال تعالى «فمن بدله بعدما سمعه» - «وإذا بدلنا آية مكان آية» - «وبدلناهم بجننتهم جننتين» - «ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة» - «يوم تبدل الأرض غير الأرض» أي تُغَيَّر عن حالها ، «أن يُبدل دينكم» - «ومن يتبدل الكفر بالإيمان» - «وإن تتولوا قومًا غيركم» وقوله «وما يبدل القول لدي» أي لا يغير ما سبق في اللوح المحفوظ تنبيها على أن ما علمه أن سيكون على ما قد علمه لا يتغير عن حاله

والإبدال قوم صالحون يجعلهم الله مكان آخرين مثلهم ماضين وحقيقة هم الذين بدلوا أحوالهم الذميمة بأحوالهم الحميدة وهم المشار إليهم بقوله تعالى : «أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات» ، ورأي آخر في مفهوم البديل على صحته

في الاستخدام بعض القصور في التعبير عن المعنى المقصود ، خاصة مع الإيحاءات الأولى التي يتركها المفهوم في الذهن ، وذلك كأن الحضارة الإسلامية تعرض نفسها كبديل ولم يكن لها سابق بزوغ وتقدم ، كما أن هذا الاستخدام قد يشير من ناحية أخرى إلى تحكم الحالة الحضارية الراهنة سواء في أزمة الحضارة الغربية أو رد فعل المسلمين من خلال صحوتهم في استخدام ذلك المفهوم ، وحقيقة الأمر أن الاسلام وحضارته لا يعرضان كبديل ، بل هما أصل أصيل يجسد تجسيده مع باكورة الدعوة للرسالة وإقامة أسس الأمة الإسلامية ، وغاية الأمر أن حضارة الاسلام ليست إلا عودة للأصول الأساسية للبقاء الحضاري وإحياء لها يقض النظر عن أن تكون بديلا لحضارة أخرى من عدمه .

ولاشك أن هذه الحضارة الإسلامية على اهتمامها بأن تقف موقفا بينا واضحا في علاقتها بحضارة الغرب باعتبارها الحضارة المسيطرة الغالبة ، حتى أسميت بالحضارة الكونية ، فانها تعتبر ذلك أحد الشروط والمستويات لتحقيق الوعي الاسلامي في امتداداته الزمنية والمكانية والموضوعية ، وجزء من هذا الوعي وتكوينه هو لاشك الوعي بالغير والتعامل معه بلا انهزام وفي إطار تملك الزمام الحضاري ، رغبة في بلوغ العزة الحضارية المهدية « فله العزة ولسوله وللمؤمنين » .

في هذا السياق كان التفضيل لمفهوم « الشهداء الحضاري » (١) استنادا إلى الآية الكريمة « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهدا على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، إذ الشهادة والشهود : توحيد وحضور وعلم ووعي وصدق وحق واستشهاد وتضحية وفداء .

(١) الشهداء الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة وجمع مشهد مشاهد ومنه مشاهد الحج وهي مواظنة الشريفة ، وقيل مواضع الناسك . قال «ليشهدوا منافع لهم - وليشهد عذابهما - ما شهد ؟ أهله» أي ما حضرنا ، والذين لا يشهدون الزور» أي لا يحضرونه بنفوسهم ولا بهمهم وإرادتهم والشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بعد وقال «سكتب شهادتهم» تنبئها أن الشهادة تكون عن شهود . وقوله «وانتم تشهدون» أي تعلمون ، وشهدت يقال على ضربين : أحدهما جار مجرى العلم وبلفظه تقام الشهادة ويقال أشهد بكذا ولا يرضى من الشاهد أن يقول أعلم بل يحتاج أن يقول أشهد . والثاني يجري مجرى القسم ويقال شاهد وشهيد وشهداء ويقال شهدت كذا : أي حضرته وشهدت على كذا وقد يعبر بالشهادة عن الحكم نحو «وشهد شاهد من أهلها» وعن الاقرار نحو «ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم» وقوله «ما شهدنا إلا بما علمنا» أي ما أخبرنا وقوله «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم» فشهادة الله تعالى بوحدانيته هي إيجاد ما يدل على وحرانيته في العالم وفي نفوسنا ، وأما الشهيد فقد يقال للشاهد والمشهد للشرع وقوله «سائق وشهيد» أي ما شهد له وعليه ، وكذا قوله «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا» وقوله «أو ألقى السمع وهو شهيد» أي يشهدون ما يسمعونهم بقلوبهم على ضدين قيل فيهم «أولئك ينادون من مكان بعيد» ..

الراغب الأصفهاني (المرجع السابق ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

وهذا المفهوم يفرض من خلال الرؤية الاسلامية تأصيل متميز ومختلف للمفهوم الحضاري برفعه من عناصره وأسسها وغاياته ومقاصده بل وسائله وأدواته بما يضبط المفاهيم وبما يحقق قاعدة للوعي الحضاري فإنه ليس من المبالغة في شئ القول أن تحديد مفهوم الحضارة (١) والرؤية الاسلامية المتميزة له - ليس في حقيقته - إلا مقدمة أساسية مع افتراض إشاعة الوعي به على مستوى الأمة بكافة ع؟ لتحقيق حالة الشهود الحضاري واستثماره؟ وترشيدها وتوجيهها الوجهة السليمة بما يحقق أسس التمكين الحضاري في الزمان والمكان وتجسيد «خير أمة» كحضارة حية فاعلة ومتفاعلة بوعي ورشد على بينة من .. وحال غيرها .

(١) من الجدير بالإشارة أن مفهوم الحضارة قد صادف محاولات لتأصيله وتعريفه إلا أن واحدا من هؤلاء لم يشر إلى حقيقة الحضور والشهود في هذا المفهوم وإنما قصره على أن يكون الحضر في مقابل البداوة وهو معنى إن لم نتركه إلا أن معنى الحضور الأصلي يعطي للمفهوم آفاقا أرحب بما يتواءم والرؤية الاسلامية لمفهوم الحضارة وشموله وارتباطه بحقيقة الشهود والحضور في الزمان والمكان .

وقد أشار الراغب إلى هذا المعنى في مفرداته : «الحضر خلاف البدو والحضارة والحضارة السكون بالحضر ... ثم يجعل ذلك إسما لشهادة مكان أو انسان أو غير . فقال تعالى «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت - وإذا حضر القسمة» وقال تعالى «ما عملت من خير محضرا» أي شاهدا معاينا في حكم الحاضر .. وحاضرتُه محاضرة وحضارا إذا حاجبته من الحضور فإنه يُحضر كل واحد حجته والحضيرة جماعة من الناس يُحضر بهم الغزو وغيره عن حضور الماء والمحضّر يكون مصدر حُضِرَ وموضع الحضور ..»

ومن معاني الشهود والحضارة والحضور نجد اشتراك في معان كثيرة تزكي اختيار معنى الشه؟ وتؤكد .

ولاشك أن حقيقة الشهود الحضاري تتعلق بتأصيل جوهر الوظيفة الحضارية للأمة الاسلامية باعتباره أي الشهود - المحتوى الحقيقي لهذه الوظيفة ، ليس لأمته من ضروريات عقيدة التوحيد «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ..» فحسب بل ولأنه كذلك من ضرورات الاستخلاف في الأرض وعمارتها «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا» .

كما أنه (أي الشهود الحضاري) أحد دلائل قدرة الأمة على حفظ دينها شريعة وعقيدة والانطلاق من هذا الحفاظ نحو تجسيد حقيقة صلاحيته في الزمان والمكان باعتباره الرسالة الخاتمة التي تفرض على أمة المسلمين الاستجابة لله وللرسول لأن في ذلك حياتها وهويتها وشهودها الحضاري «ياأيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» .

وكذلك فإن الشهود الحضاري للأمة الاسلامية هو وحده القادر على تجاوز الأزمة الحضارية المعاصرة ذلك لأنه يملك من ذاته - مقومات هذا التجاوز سواء كانت تلك المقومات عقيدية أو حركية أو نظمية ، فعقيدته تنطلق من التوحيد لتحث الفاعلية في العلاقة بين الانسان والكون والحياة بما يحدث من إعمار وتعمير دون فساد أو إفساد لأطراف هذه العلاقة الثلاثية وحركة تنضبط بعقيدته ومبادئها الأساسية فإذا بها حركة مستقيمة تنظم علاقة الأمة بربها وعلاقتها بذاتها وكذا علاقتها بغيرها وذلك مقام تجسيد الشهود على العالمين الذين ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ، ونظم الشهود الحضاري لانقل انضباطا بالعقيدة عن حركته إذ تشكل الوساطة للأمة في الربط بين عقيدتها وحركتها بما يجعلها قادرة على الاستجابة لتحديات الواقع المعاش مستلهمه في ذلك رصيدها وتراثها الحضاري مستشرقة من خلال ذلك آفاق مستقبل شهودها الحضاري وتمكينه .

منظومة المفاهيم الحضارية وموضع الشهود الحضاري منها : -

وفق ما حددناه من مفهوم للشهود الحضاري يحسن بنا أن نتعرض إلى قضية الحضارة وتأصيل مفهومها ، ذلك أن كثير من الباحثين ينطلقون لتأصيل مفهوم الحضارة بالعودة إلى كتب اللغة - على أهمية ذلك وضرورته - دون أن يتعرفوا على طبيعة قضية الحضارة ومفهومها ، فالحضارة ليست مفهوما جزئيا يمكن معالجته بمفرده أو بالرجوع إلى قواميس ومعاجم اللغة فحسب ولكنه مفهوم كلياً شاملاً يشكل المفهوم المحور لمنظومة المفاهيم الحضارية والتي تسهم في بيانه وتأصيله .

وتأسيساً على ذلك فإنه يقصد بمنظومة المفاهيم الحضارية تلك المفاهيم التي تتداخل منهما ، وتترتب على بعضها وعيا ، وتتكامل بناء بحيث تشكل في مجموعها أصول النظرة الحضارية الشاملة التي تعي المعايير والضوابط للتفكير بمسألة الحضارة .

ومن أهم مميزات المفاهيم الاسلامية أنها تشكل في مجملها منظومة معرفية واحدة ، تبني على بعضها ، تؤكد على الناظر لها أن ينظر إليها بالنظر الكلي ، وعلى المتعامل معها أن يتوجه إليها بشمول والمستأنس بها أن يراها وحدة متكاملة ، حيث تتكامل المفاهيم مع بعضها ضرورة وتتداعى افتقاراً وهي في هذا لاتعبر عن تكامل ظاهري مدعى أو توفيقاً مصطنعاً فالتوحيد كقيمة

أساسية يشد ببيان المفاهيم الإسلامية إذ تنبثق منه مبدأ وقاعدة ، وعود إليه مقصدا وغاية .

المفاهيم الإسلامية كالبنيان يشد بعضه بعضا أو هي كالجسد الواحد ولا يمكن رؤيتها إلا كذلك بحيث تتدرج كل تلك المفاهيم في منظومة معرفية واحدة تتأسس على قيم الإسلام الأساسية ومقاصده الكلية .

وفق هذا التصور يمكننا رؤية منظومة مفاهيم حضارة التوحيد على النحو التالي : -

انظر في مفهوم العمران وتعلقه بالحضارة والعلم : - محمد اسماعيل راشد ، من الأصول الإسلامية للعلم والتعلم ، ضمن الإسلام والحضارة ، مرجع سابق ، مجلد (١) ، ص ٢١٩ وما بعدها .

وفي مفهوم الوراثة والتداول والتمكين انظر : - د. فاروق حمامة ، الوراثة الصالحة للحضارة المعاصرة ، المرجع السابق ، مجلد (٢) ، ص ٥٢٧ وما بعدها .

وكذلك في مفهوم العبادة انظر : - محمد معروف الدواليب ، هل عبادة الله واجب علمي وحيوي وما مفهومها في الإسلام ، المرجع السابق م (١) ، ص ٦٨٧ وما بعدها .

انظر في مفهومي الأمانة والخلافة : - قيصر أديب ، تفسير الإسلام للتناقض الظاهري والحلول المقترحة لهذا التناقض ، المرجع السابق ، ص

٧٦٠ وما بعدها .

انظر في مفاهيم : - العمران والاستخلاف والابتلاء : - نصر محمد عارف ، نظريات التنمية السياسية في ضوء المنظور الحضاري الاسلامي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة : كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ١٩٨٨م

وهذه المنظومة لمفاهيم حضارة التوحيد ترتبط بمقاصد الشريعة الكلية لزوما وتلازما من حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال من ناحية كما أنها ترتبط بمنظومة الفعل الحضاري ومكوناته : الكون ، الانسان - الزمان - باعتبارها مجال الفعل والحركة الحضارية بما يضفي القيمة عليها ، من ناحية أخرى .

فالأمانة جوهر الانسانية ونقطة البدء في الرؤية الحضارية «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا» (الأحزاب / ٧٢) .

إنها شأن خطير يتعلق بالكينونة الحضارية للإنسان يحمله في حاضره ومستقبله ، وهي الوديعة المالمستردة التي يحاسب حاملها على الإفراط إن ضيع ، يثاب إن حافظ والتزام أدائها .

والتسخير فضل إلهي لمعونة الانسان في حركته الحضارية «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض» .

والتكريم الانساني صفة لازمة لحملة الأمانة وتجد جوهرها في تسخير المخلوقات له «ولقد كرمنا بني آدم ..» ، التكريم في الخلق لأداء مهمته «...خلق الانسان في أحسن تقويم» .

والاستخلاف مسيرة الانسان الحضارية « .. إني جاعل في الأرض خليفة ..» «هو الذي جعلكم خلائف في الأرض» .

والعبادة حركة حضارية شاملة .. «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» .

والإعمار جوهر الوظيفة الحضارية « .. هو الذي أنشأكم من الأرض واستعركم فيها » .

والدفع والتداول سنة إلهية ترتبط بحركة الانسان الحضارية « .ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض .. » ، « وتلك الأيام نداؤها بين الناس .. » .

والابتلاء والفتنة حال ملازم للحركية الحضارية للانسان ما كانت الحياة واستمرت ، فالدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء ، فالابتلاء اختبار وتجريب للانسان المستخلف في هذا الكون لما ميز به من إرادة واختيار يجعلانه موضع الابتلاء والاختبار ليميز بنو الانسان في آدائهم وحركتهم الحضارية «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» (الكهف / ٧) ، «ونبولكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون» (الأنبياء) ، والابتلاء سنة ملازمة لاستخلاف الانسان في الأرض - «وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم» (الأنعام / ١٦٥) «ولنبولكم بشئ من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين» (البقرة / ١٥٥) والابتلاء حقيقة الحياة ، والمؤمن فيها مبتلى « .. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون .. » . والإبدال قرين سنة التداول الحضاري «وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ..» والتعبير الحضاري ليس هبة أو منحة وإنما هو حركة حضارية يبذل فيها الجهد لتعبير عن حقيقة السنن الإلهية المرتبطة بالانسان باعتبارها سننا شرطية بحكم تحمله للأمانة واستخلافه وابتلائه وفتنته «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

وجوهر عملية التغيير بل وقبلها وبعدها حقيقة الاستجابة «يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ..» فالاستجابة قرينة الإحياء الحضاري وشرطه ، ووراثة الأرض وحال التمكين لابد أن يقتربنا بشروط ذلك فإن حال التمكين لا يكون إلا بفعل التمكين « .وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم .. » فهذا التمكين مقترن بفعله «والذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ..» « .. والأرض يرثها عبادي الصالحون » .

والشهود هو النتيجة ، هو وظيفة الأمة الحضارية على العالمين ، هو جوهر وسيطتها ومحك خيريتها ، فإن فقد الشهود فإن هذا نذير للأمة بأنها عطلت وظيفتها وتخلت عن وسيطتها وفقدت خيريتها وانزوت؟ من الشهادة والشهود ، من الحضور الواعي إلى حال من الغياب الحضاري والعطالة عن الفعل الحضاري .

في ظل هذا الفهم المتكامل لمنظومة المفاهيم لحضارة التوحيد (١) يمكن فقط بيان وتأسيس حقيقة الشهود الحضاري بكل متعلقاتها وعناصرها وأسس صياغة نموذج المقترح .

(١) انظر في المعالجة الجزئية لبعض هذه المفاهيم :- د. أحمد حسن فرحات ، الأمة في دلالاتها العربية والقرآنية ، ضمن م؟ الاسلام والحضارة ، مرجع سابق ، م (٢١) ، ص ٢٩٨ وما بعدها .
انظر في مفهوم العبادة في المنظور الاسلامي وكذا التغيير :- حسن محمود جاد الكريم ، محاولة لإعادة بناء الذات المسلمة ، القاهرة : دار الاعتصام ، ١٩٨٤ م . ص ٢١ وما بعدها ، ومن ٣١ - ٣٤ .
انظر في مفهوم السنة وأثرها في الحركة الحضارية وكذا مفاهيم التغيير والدفع وتمكين المؤمنين ونصرهم :- محمد الصادق عرجون ، سنن الله في المجتمع من خلال القرآن ، الرياض : الدار السعودية للنشر ، ص ٣١ ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

بناء نموذج مقترح للشهود الحضاري :-

(المقاصد - الأصول والمقومات - المكونات - المستلزمات)

يتناول هذا المبحث الأخير في إطار بيان المآزق الحضاري للمسلمين والأزمة الفكرية وكذلك الأ؟ الحضاري للغرب ، وعدم كفاية البدائل المختلفة لتحقيق الشهود الحضاري وجوهره كواقع معاش يتناول محاولة الاشارة إلى أهم العناصر التي يمكن أن يتضمنها بناء نموذج مقترح للشهود الحضاري ، وبما يعنيه ذلك من تأسيس عملية الشهود بما يجعل منها واقعا يستطيع من خلاله المسلمون العودة إلى مكان ريادتهم الحضارية للإنسانية المعاصرة المأزومة .

وهذا النموذج يعتمد في بنائه على تأسيس مفهوم الشهود ومنظومة المفاهيم الحضارية بجملتها ، كما أنه ينطلق من النماذج التاريخية الإيجابية في الخبرة الاسلامية إذ يسترشد بمناهجها وتحديد عناصر فاعليتها الحضارية ذلك إن الرجوع لهذه النماذج للشهود الحضاري في الخبرة الاسلامية أمر ضروري من حيث إنها المجال الرحب الذي تجسد فيه أو من خلاله مفهوم الشهود الحضاري كخبرة واقعية . ولا يهمنا في هذا المقام أن نحصر جميع تلك النماذج المستفادة من الخبرة التاريخية ، قدر ما يهم التأكيد على : كيف أن هناك نماذج من هذه الخبرة تحققت فيه للشهود الحضاري إلى حد كبير - فاعليته وقيادته .

ونشير إلى بعض منها مثل : النموذج النبوي - النموذج الراشدي - نموذج

عمر بن عبد العزيز - نموذج صلاح الدين الأيوبي - نموذج نور الدين زنكي .
هذه النماذج تشير إلى قواعد أساسية ترتبط بالفعل الحضاري هي التي تمثل
الشروط لبلوغ حالة الشهود الحضاري بما يصاحبه من حال التمكين . (١)

ولاشك أن هذه النماذج الإيجابية في الخبرة الإسلامية تقابلها نماذج
تاريخية سلبية على العكس من ذلك حدث عن قواعد الشهود الحضاري ، فكانت
النتيجة أنه في مثل هذه النماذج تداعت الأمم غير المسلمة على المسلمين كما
تداعى الأكلة على قصعتها ، وهو أمر لا يزال المسلمون يعانون منه حتى وقتنا
المعاش .

كما أنه لا يفوتنا في هذا المقام التنويه إلى ضرورة دراسة نماذج من
الخبرة التاريخية شهدت إبننا عانى بعض فتراتنا للشهود الحضاري كما شهدت
انتكاسا لهذا الشهود وقد مرت إشارات إلى تلك النماذج جميعا في المبحث
الخاص «بالمأزق الحضاري» لكن الأمر الجدير بالملاحظة انه لا ينبغي أن نغفل
ضرورة معرفة السنن الإلهية في ؟ لمثل هذه النماذج والانتكاس ، بما يحقق
عملية الاعتبار والعظة والتذكير بأيام الله .

(١) انظر إلى تلك الاشارات القيمة في ضرورة دراسة هذه النماذج : - د. جمال الدين خليل ، حول إعادة كتابة
التاريخ الإسلامي ، قطر : الدار الثقافية ، ط١ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ص ١١١ - ١١٢ .
انظر أيضا : نور الدين محمود : الرجل والتجربة ، دمشق : دار القلم . ملالغ الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر
بن عبد العزيز ، ط(٨) ، بيروت : مؤسسة الرسالة .

في إطار الدلالات التي يتركها تأصيل مفهوم الشهود الحضاري وموضعه
ضمن منظومة المفاهيم الحضارية ، يمكن استنباط تلك العناصر الأساسية لبناء
هذا النموذج .

أولا : مقاصد وغايات الشهود الحضاري : -

وذلك في إطار الفهم الواعي لحقيقة مقاصد الشريعة الخمسة وفق ترتيب
معين ، ذلك أن غايات ومقاصد الشهود الحضاري تُشتق منها وتعود إليها جملة
وتفصيلا .

ولاشك أن ثبات هذه المقاصد يجعل إمكانية العبث بها أو تبديلها أمرا
يفقد الحركة الحضارية مشروعيتها وشرعيتها ، كما أنه يجعل عملية الاستجابة
وفق الهوى دون ضبط أو حد عملية خارجة عن حد الشرع .

وتعنى الأمة في حركتها تلك المقاصد إنما يعتبر محك خيريتها وتأسيس عمارتها الحضارية (١) بينما تضع النماذج الحضارية الأخرى - وفق تأسيسها الوصفي - غاياتها وفق تصور بشري قاصر يقضي في النهاية إلى إمكان تبديلها والعبث بمضمونها سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو الجماعة وهو يشكل في الحقيقة أهم جوانب الأزمة الحضارية الراهنة .

(١) من الجدير بالاشارة هنا التأكيد على الجانب المعنوي في مفهوم الحضارة وإبراز البعد القيمي له حيث يشكل هذا وذاك جوهر المفهوم حقيقة في الرؤية الاسلامية ، انظر في القيم والحضارة : د. محمد علي الهاشمي ، القيم الكبرى التي يقوم عليها المجتمع الاسلامي والحضارة الاسلامية ضمن : الاسلام والحضارة ، م . س . ص ٥١ وما بعدها .
انظر أيضا : د. محمد فتحي عثمان ، القيم الحضارية في رسالة الاسلام ، المرجع السابق ، ص ٧٢ وما بعدها ،
وأیضا : د. أحمد عبد الرحمن أبراهيم ، قيم المجتمع هل هي ثابتة أم قابلة للتغيير ، المرجع السابق ، ص ٣٦١ وما بعده .

ثانيا : أصول ومقومات الشهود الحضاري : -

بما يعنيه ذلك من توافر مجموعة من الركائز التي يقام عليها بنيان الشهود الحضاري ويمكن في هذا الصدد أن نعدد منها على سبيل المثال : -

(١) وحدة مصدر البناء الحضاري : -

ويعني أن الشهود يستقر مضمونه ومفهومه وبنياته العقيدي والنظمي والحركي من مصدر ثابت «القرآن والسنة الصحيحة» وكل العلوم الخادمة لهما المعينة على فهمهما .

(٢) وحدة نظام القيم : -

الذي يشكل التوحيد محور هذا النظام والقيمة المحورية فيه باعتباره جوهر الحضارة الاسلامية ومقصدها الأعلى وأسس العقيدة الذي يجعل من حاكية الشرع مبدأ ومن مرضاة الله غاية ومن اتباع طريقة الاستخلاف منهجا ويشكل نسق القيم الأخرى اشعاعا من قيمة التوحيد فتبرز قيمة العدل باعتبارها القيمة العليا في سلم القيم لتضبط النظر إلى القيم الأخرى بما يحقق مفهوم الأمة والحضارة الوسط ولتصبغ قيم المساواة والاختيار والشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ..

(٣) القوة : -

التي تصير أداة الأمة المساندة للشهود والحامية له والقادرة على التصدي لأية محاولات قد تحول بينه وبين التمكين له «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ومفهوم القوة - ضمن فهم حقيقة الاستخلاف - لا يعني بطشا أو إكراها أو سيطرة بقدر ما يأتي من كونه في سبيل الله ولدفع أعداء الله إعمالا لسنة «التدافع الحضاري» .

(٤) العلم : -

إن كلمة الدين في الرؤية الاسلامية لا توضع بمقابل كلمة «علم» ، فشئون الحياة كلها ومجمل الحركة الحضارية لها صلة بالدين ، ولا يوجد أمر من أمور حياة المسلم وحركة خارج نطاق الدين ومنها العلم فمجالات العلم ينبغي أن تتأسس من حيث تحصيلها ورسم حدودها وتحديد غاياتها على قواعد وأصول ومقاصد من الشرع ويكون تحقيق ذلك وإنجازه مهمة أساسية منوطة بالجماعة الاسلامية تعمل على إيجاد حشود من العلماء يتناولون المعرفة بالتنقيح والتمحيص ويحققونها تحقيقا يصل العلم النافع بالعمل الصالح بعملية الشهود الحضاري .

(هـ) مؤسسات الأمة : -

يقصد بمؤسسات الأمة تلك المؤسسات التي تعينها على تحقيق وظيفتها الحضارية وتقدم لها الوسائل والنظم لبلوغ أهدافها ، كما تضمن حمايتها واستمرارها في تادية وظائفها فهي في جوهرها إفرار من الأمة من حيث نشأتها وارتباطها بالشرع والشرعية من حيث وظيفتها كما أنها تملك مقومات استمرارها واستقلالها لحماية الشرع والشرعية والتأكيد على البيئة المواتية لتحقيق الشهود الحضاري داخل الأمة وخارجها وأهمها : -
الافتاء والوظيفة السياسية للعلماء

الوقف كضمان لاستمرار الوظائف الحامية للشرعية
والمسجد - قبل كل هذه المؤسسات - التي تجعل منه مؤسسة للجماعة التي يناقش معها أمور المسلمين باعتبارها من قبيل العبادة .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كمؤسسة مستمرة لانتطلب إذن السلطة للقيام بها ولا تتوقف على قيام مؤسسات السلطة ذاتها مثل الحسبة وذلك وفق شروط وحدود أكدها وبينها الشرع .

مؤسسة الدعوة باعتبارها وظيفة مستمرة وتربوية ترتبط بأصول الرعاية « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

ثالثا : المكونات الأساسية للشهود الحضاري : -

في هذا الصدد تتعدد المسميات لتلك المكونات ، إلا أنها في حقيقة أمرها تنصرف إلى «الانسان» ، و«المكان» ، إذ تشكل تلك مكونات الحضاري التي في حالة الوعي بها ومكان كل منها في العملية الحضارية والتزامها بالأصول والمقاصد والفهم لحقيقة كل منها - تسعى لبلوغ حالة الشهود الحضاري (١) . وإذا كان «الانسان» في حكم تعاليم الاسلام مخلوق مكرم بالعقل والبيان والإرادة وكانت الدنيا هي الإطار الكافي لنشاط الانسان ولعبادة ربه في كل حالاته ، فإن الوعي بالإطار الزماني لنشاط الانسان له قيمته الحضارية الكبرى إلى جانب قيمتي الانسان والمكان .

وليس للزمان أو المكان قيمة في ذاتها - من وجهة النظر الاسلامية - إنها

دلالات على خلق الله وشواهد على الانسان وعمله فلا قيمة لزمان يمر
بالانسان دون أن يكون مفعما بالإيجابية ومليثا بالأداء الايماني المنضبط
والمتجه نحو مرضاة الله تحقيقا للشهود الحضاري .

(١) انظر في بيان هذه المكونات والعناصر :- فاروق بدران ، معالم الشخصية الاسلامية الفاعلة في الفرد والجماعة ،
ضمن الاسلام والحضارة ، مرجع سابق ، ٢٠ ، ص ٥١١ وما بعدها .

انظر أيضا : عابد توفيق الهاشمي ، مدخل إلى القصور الاسلامي للانسان والحياة ، عمان : دار الفرقان للنشر
والتوزيع ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

وكذلك : د. فاروق الدسوقي ، مفاهيم قرآنية حول حقيقة الانسان ، بيروت : المكتب الاسلامي ، الرياض : مكتبة
فرقد ال ، ط ٢ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ومن أهم الكتابات التي عالجت مفهوم الانسان وطبيعته : الراغب الأصفهاني ،
تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين ، تقديم وتحقيق : د. عبد المجيد النجار ، بيروت : دار الغرب الاسلامي ،
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ، ص ٦١ وما بعدها .

والمكان - في الرؤية الاسلامية - وكذلك - في الرؤية الاسلامية - وكذلك
الزمان ، نعمة أنعمها الله على الانسان المهتدي في الحياة الدنيا ، فهو ذاكر
في الزمان .

بينما يتعتبر الانسان هو أهم عنصر من عناصر الفعل الحضاري ومحك
الشهود الحضاري ، إذ هو الذي يعطي للمكان معناه وأهميته كما يعطي للزمان
فغزاه وفاعليته . ومن ثم يبدو منهج التغيير الاسلامي منهج شامل لتحريك
طاقات الانسان كافة ويخرجها من عالم القوة إلى عالم الفعل وينظمها ويحركها
في اتجاه ينسجم مع أصل تكوينه وبلوغ الشهود في عالم الوجود ، فالانسان
مؤمن على ما في هذا الكون ، مؤتمن على نفسه وعمله وعلمه ، مؤتمن على
الزمان والمكان ، إذ أنه وفق الرؤية الاسلامية في أصلها - لا يمكن أن تؤدي
عناصر الفعل الحضاري (الانسان - الزمان - المكان) فعاليتها في عملية التغيير
الحضاري إلا برابط بينها جميعا ، يشكل مقوما أساسيا للعلاقة الاجتماعية في
الداخل والعلاقة مع الغير ألا وهو الاستخلاف .

فالاستخلاف وفق هذا الفهم هو العلاقة المعنوية التي تربط الانسان بالأرض
والطبيعة من ناحية ، وبأخيه الانسان من ناحية أخرى ، وإذا كانت الحضارات
البشرية جميعا تشترك بالعنصر الأول والثاني فإن العنصر الثالث (الاستخلاف)
إنما يشكل محور التمييز والاختصاص ، إنه العلاقة المعنوية حيث تختلف
المجتمعات في طبيعية هذه العلاقة وكيفية صياغتها ، وهو أهم المقومات
الأساسية للعلاقة الاجتماعية الحضارية التي طرحها القرآن الكريم تحت مسم
«الاستخلاف» الذي هو في حقيقة أمره «مسيرة تحقيق الشهود الحضاري

وقواعد التمكين في الأرض وإرساء أصول العمارة الحضارية .

رابعا : أهم المستلزمات للشهود الحضاري ك -

إذا كانت المستلزمات متطلبا سابقة لحدوث الشئ فإنها بالنسبة عملية الشهود الحضاري ضرورات يجب أن تسبقه وتلائمه تكريسا وحماية وتكينا ويكفينا أن تعدد منها على سبيل المثال : -

(١) العملية الاجتهادية وعلاقتها بتطبيق الشهود الحضاري : -

إذا أكدنا على ضرورة بناء منهجية الاجتهاد وبحث إمكانية تطبيق مداخلها وأسسها في الدراسات الاجتماعية والانسانية ، وإذا ما التزمنا بالمفهوم الواسع للاجتهاد الذي لا يحصره في المجال الفقهي على أهمية هذا المجال ولكن باعتباره عملية حضارية شاملة ، فإن الشهود الحضاري يعتبر أهم الموضوعات التي يجب أن تحتل أولوية في العملية الاجتهادية وذلك لشمولها على عناصر وإمكانات ومقومات العمارة الحديثة وبناء الأمة .

ولاشك أن الاجتهاد يجب أن يشمل كل العمليات المنهجية المرتبطة بالبحث في موضوع الشهود الحضاري ، من البحث في تأصيله والحديث عن إمكانات تحقيقه ومعوقات ومواضع تطبيقه وإمكانية مجابتهها والفتنة إلى الآفات المصاحبة للتطبيق والحديث عن الوسائل والاجتهاد فيها بحثا يمكن أن تحقق الشهود الحضاري كواقع معاض بل كفكرة يجب أن تشغل العقل المسلم وذاته .

(٢) إسلامية المعرفة ضرورة للشهود الحضاري : -

تأسيسا على النقطة السابقة التي تؤكد على جعل فكرة الشهود الحضاري فكرة حاضرة في العقل المسلم يعي أهميتها ومتطلباتها فإن هذا يجعل من إسلامية المعرفة ضرورة لتحقيق هذا الوعي .

ذلك أن احتلال العقل المسلم بمجموعة من المعارف جعلت بينه وبين أصوله الإسلامية حاجزا وستارا كثيفا من الأفكار المناقضة للأصول الإسلامية قد شل العقل المسلم عن التدبر والاعتبار فضلا عن عطلته عن العقل والفعالية الحضارية .

وإسلامية المعرفة تعني أن بناء وعي العقل المسلم وإعادة تشكيلة متطلب سابق ولازم للشهود الحضاري وتحقيقه والتأكيد على الفعالية الحضارية إذ تؤمن أن هذا البناء أولى الخطوات في عملية تغيير ما بالنفس وصولاً لتغيير ما بالقوم أو الأمة . كما أن على توجه إسلامية المعرفة أن يبرز قضية الشهود الحضاري وتجعلها موضع اهتمامها البحث والدراس بل والحركي ، إذ عليها أن تسعى لتأصيل هذه الفكرة بكل عناصرها موضحة مقوماتها وأهم شروط تطبيقها كما عليها أن تواصل جهود متناثرة وفردية لم تملك الفعالية المناسبة لمواجهة علة الأمة . كما عليها أن تفتن إلى قصور الحركات الإسلامية السابقة عليها التي لم تهتم بقضايا الحضارة والمعرفة والثقافة والفكر ، إذ تعتبر تلك ثغرات يجب أن ترابط عليها حتى لاتؤتي الأمة منها وحتى تدفع الأمة إلى ممارسة شهودها الحضاري وبناء الوعي الحضاري السابق عليه واللازم لتحقيقه .

(٣) ضرورة الحوار الحضاري :

إن الشهود الحضاري - في حقيقته - وبطبيعته - يتوجه إلى الانسانية كلها عبر جسور من الإقناع والاقناع « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ووفق أصول الحوار الحضاري « وجادلهم بالتي هي أحسن » وهو يؤمن بالتفاعل الواعي ويرفض التبعية بلا دليل ، وطبيعي أن يجابه برؤى مختلفة للحضارة التي تختلف في بنيانها ومقاصدها ومناهجها عن البنيان والمقاصد والمنهج التي تقام عليها الحضارة في هذا الشهود ، وهذا التحدي يفرض عليه أن يعي ضوابط عملية الحوار الحضاري ، وحدود التفاعل الواعي مع تلك الرؤى بحيث يتميز ولا يستوعب من خلالها ولا ينساق في منظومتها أو يتعامل معها بانهازم وانهيأ ، وب عقلية التقليد والتبعية واللحاق بالركب الحضاري والنظر إلى عملية البناء الحضاري بكونها تكديسا للأشياء لا صنع الحضارة .

(٤) الوعي بالآفات التي تلحق بتطبيق الشهود الحضاري :

ومن هذه الآفات التصور الجزئي أو التجزيشي أو الأحادي للإسلام ، والقبيلة والشعبوية والإقليمية في التوجه ، والمفاسد التي قد تطرأ على حياة الأمة فتبدل من نظام قيمها فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وكذلك الاستدراج إلى مواقع الفكر الدفاعي بما يبدد الطاقات الذهنية التي يجب استثمارها في عملية البناء الحضاري وعدم اتخاذ موقف محدد من التراث أو اتخاذ موقف خاطئ منه إما يتصرف إلى تقديسه وافتراض العصمة فيه أو هجره

وإهمال التعامل معه والاستفادة منه ومن خبراته ومناهجه ، ومحاولة صبغ الشهود الحضاري بصيغة مذهبية فكرية أو حركية بما يحصر من معناه ويضيق من مفهومه الرحب مفضلا التعامل مع المذهب على تدبر وفهم الأصول ، وغير ذلك كثير يجب الوعي به وبإمكان تجنبه قبل وقوعه أو إمكانية الانتصار عليه إن وقع والطرق المؤهلة لكل ذلك .

خاتمة

وإذا كانت هناك جملة من القرائن تشير إلى سقوط حضارة الغرب و بزوغ فجر حضارة جديدة ، يرجى أن يقودها المسلمون ، فعلينا أن نتذكر جيدا أن الله عز وجل لا يؤتي نصره من لم يكن جديرا به ، مسلما كان أم غير مسلم ، ومن مقتضيات العدل الإلهي أن تنطبق سننه على الجميع مسلمين وغير مسلمين ، ومن هذه السنن أنه لا يفوز إلا من امتلك أدوات الفوز ، ولا يسود إلا من حاز شروط السيادة .

ومعنى ذلك أن على المسلمين أن يبذلوا جهدهم ليكونوا جديرين بالاستخلاف والتمكين ، وألا يتوهموا أن سقوط حضارة الغرب سيؤدي بالضرورة إلى قيادتهم لركب الحضارة التي سوف تسقط بين أيديهم غنيمة باردة فتلك أحلام الكسالى والعاطلين والواهمين .

ثم إن الحضارة الغربية بشقيها «الشرقي والغربي» لاتزال تمارس تأثيرا واضحا على معظم شعوب الأرض وقد يمتد هذا التأثير إلى أبعد مما نتصوره ، ذلك أن سقوط الحضارات وقيامها لا يكون بين يوم وليلة ، ولا بد من أن نضع عامل الزمن في الحساب .

من جهة أخرى يمكن للدارس أن يذكر أن من أسباب استمرار الحضارة الغربية خلو الساحة من أي بديل حضاري أفضل يمكن أن تؤول إليه قيادة الحضارة . وفي ظل ضعف المسلمين الحالي وشتاتهم يمكن أن يتقدم آخرون لقيادة الحضارة فتنقل بذلك من يد الغرب إلى يد أخرى ، ويظل المسلمون في موقف المتفرج العاجز .

ثم إن هناك كثيرا من أبناء المسلمين مازالوا - لسبب أو لآخر - مفتونين

بحضارة الغرب ، ورد هؤلاء إلى الصواب وتبصيرهم بالحقيقة من أهم ما ينبغي على المسلمين أن يقوموا به ، لأنه واجبهم من ناحية ، ولأنه خطوة لا بد منها في سعيهم لتولي قيادة الحضارة من جديد .

وبعد : فإن هناك مؤشرات موضوعية متكاثرة ، تدل على أن الخط البياني للحضارة الغربية يسير نحو الانحدار ، وشواهد كثيرة تدل على أن شمسها تدنو للغروب وأنها فقدت قدرتها على إقناع كثير من أبنائها بجدواها واستمرارها فضلا عن أبناء الشعوب الأخرى .

وهذا كله يجعل السؤال عن البديل سؤالاً ملحا ضروريا ويبدو - حتى الآن - أن البديل المرشح الأوفر حظا لقيادة البشرية في دورة حضارية جديدة هم المسلمون .

والمأمول - بإذن الله - أن يؤدي المسلمون المهمة الجليلة التي تنتظرهم وأن يرتفعوا إلى مستواها ، وأن يملكو شروطها الموضوعية .

وبعد : فإن الحديث عن الشروط الموضوعية التي تجعل المسلمين جديرين بأن يكونوا البديل الحضاري إن امتلكوها ، أمر يحتاج إلى بحث يكمل بحثنا هذا ويتممه ونرجو من الله العون لإنجازه .

لكن ، لا بد من ذكر أهم هذه الشروط الآن بإنجاز شديد حتى لا يضل البحث مبتورا ، عمم ولم يحدد .

وأهم هذه الشروط : -

« ١ » معالجة الأزمة الفكرية التي تأخذ بخناق الأمة منذ فترة طويلة ، والخروج برؤية إسلامية صحيحة ، ومنهجية سليمة .

« ٢ » تصحيح العقيدة بحيث تصبح عقيدة سليمة تشيع في الأمة بقوتها وعمقها ووضوحها وبساطتها وتكاملها ، وتخالط بشاشتها القلوب ، وتنقي طهارتها العقول ، وتهيمن على سائر المنطلقات للأفراد والجماعة وتدين الأمة بها وتتفاعل معها فتكون على الحق المبين في كل ما تأخذ وتدع وتفجر طاقات أبنائها في العطاء والإبداع وال عمران .

«٣» النظر المنصف الناقد المستفيد المتوازن المميز في التراث الانساني المعاصر ، والحضارة الراهنة لمعرفة ما يقبل وما يرفض ، دون تبعية مطلقة أو رفض مطلق بحيث تتميز إيجابيات هذه الحضارة عن سلبياتها وخيرها عن شرها ونافعها من ضارها .

«٤» حسن النظر في التراث الاسلامي الهائل ، بحيث يتحقق الاعتزاز به والانتفاع منه ، دون تقديسه أو المنع من مناقشة أي شيء فيه فمصادر الاسلام شيء ، والتراث الاسلامي شيء آخر ، ويحسن بنا الانتفاع من كنوزه الغالية ، مع معرفة ما فيه معرفة الناقد البصير .

«٥» العناية بتصحيح مناهج الفكر وكليات الأمور والقواعد والضوابط الأساسية بدلا من ملاحقة الجزئيات المتغيرة باستمرار ، ذلك أن الجزئيات لا متناهية بخلاف المناهج والكليات والقواعد . من هنا وجبت العناية بتصحيحها والتركيز عليها لأنها تصحح حركة العقل وتضبط مسيرته وتؤصل موازينه مما يجعل نشاطه في الاتجاه الصحيح والسلوك فرع عن التصور والأفكار - دائما - هي المقدمة الخاطئة أو الصحيحة لكل شيء آخر .

«٦» ربط هذه المناهج بالواقع الحياتي للأمة المسلمة ، فهذا يساعدها على تلمس الحلول من ناحية ، ويجعل لها عطاء عمليا من ناحية أخرى ، فتنجو بذلك من أن تظل الحلول حلولا نظرية وتهويمات متخلية .

«٧» محاولة بناء مؤسسات إسلامية بديلة في الفكر والاقتصاد والتربية والاجتماع ، لأن هذه المؤسسات تأخذ طابعا عمليا ، ولأنها تسهم في إعادة الأمة إلى الاسلام الذي انسحب من حياتها شيئا فشيئا ويمكن أن ترجع إليه شيئا فشيئا إن شاء الله تعالى .

«٨» تحقيق تصور حضاري إسلامي يمكن من بناء أمة ومجتمع ودولة حديثة قوية متماسكة قاهرة معطاءة .

«٩» تحويل ذلك كله (العقيدة والفكر والمعرفة والمنهج) إلى نسق ثقافي يمكن تقديمه لسائر فصائل الأمة بشكل يحقق قناعتها بذلك وثقتها فيه وتربيتها عليه .

« ١٠ » معرفة سنن الله - عز وجل - في قيام الدول والحضارات وفي انهيارها ، وهي سنن تصدق على المسلم وعلى غيره ، والتعامل مع هذه السنن بما يعيد الأمة إلى إسلامها ، وبالتالي يجعلها جديرة بأن تكون البديل الحضاري المأمول .

وبهذه المناسبة نؤكد على الشباب المسلم والباحثين المسلمين أن يولوا دراسة سنن الله الكونية في بقاء الأم وهلاكها ورقبها وانحطاطها عنايتهم البالغة ، فإن هذه السنن قوانين إلهية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وإنه لمن المفيد لو أن تتجه همة بعض الباحثين الجادين في قضايا الحضارة لمسح وجمع ودراسة وتحليل الآيات الكريمة المتعلقة بهذا المجال واستخلاص الدروس والعبر والتعرف على الشروط الموضوعية والذاتية ، الخارجية وغيرها ليقدموا للأمة من الدروس ما هي بحاجة ماسة إليه .

- وللتنبية على هذه السنن نذكر ما يلي على سبيل المثال لا الحصر : -
(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) القصص : ٨٣ .
- (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) يوسف : ٩٠ .
- (يا بَنِيَّ لا تياسوا من روح الله إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون) يوسف : ٨٧ .
- (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) الأعراف : ٥٨ .
- (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله ، وما عند الله خير للأبرار) آل عمران : ١٩٨ .
- (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) محمد : ١ .
- (وقدِمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) الفرقان : ٢٣ .

- (وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون . ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) الأعراف : ٩٤ - ٩٦ .

- (ما يفتح الله للناس من رحمة فلأممك لها ، وما يمك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم) فاطر : ٢ .

- (فلما ألقوا قال موسى ماجئتم به السحر ، إن الله سيظله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون) يونس : ٨١ - ٨٢ .

- (وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن ، قال إني جاعلك للناس إماما ، قال ومن ذريتي ، قال لا ينال عهدي الظالمين) البقرة : ١٢٤ .

- (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال) الرعد : ١٧ .

- (قل هل يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، فاتقوا الله يا أولي الأبواب لعلكم تفلحون) المائدة : ١٠٠ .

- (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور) سبأ : ١٥ .

- (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فممن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) آل عمران : ١٦٠ .

- (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) السجدة : ٢٤ .

- (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم
وأن الله سميع عليم) الأنفال : ٥٣ .

- (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من
محيص) ق : ٣٦ .

- (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكانهم في الأرض ما لم نمكن
لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم
فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) الأنعام : ٦ .

- (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا
بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون) الأنعام : ٤٤ .

- (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشدي)
ابراهيم : ٧ .

علما بأن الكلام عن الأمم والحضارات ورفي الأمم وانحطاطها قد أخذ من
آيات القرآن العظيم جانبا كبيرا . ولاشك أن الدراسة المتأنية الواعية
المستنيرة بنور الله سبحانه وتعالى سوف تقدم للأمة بل للانسانية كلها
دراسات قيمة نافعة هادفة في هذا المجال ما أحوج الناس إلى فهمها
وتدبرها واستيعابها لانقاذ الأمة والانسانية التي تقف على شفا الهاوية .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .